

سفر من اللیل

عبد الوهاب



کتابت لکھنؤ



يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

www.jadidpdf.com

سُحْرُ مَنْتِ اللَّيْلِيَّاتِ

بِعِلْمِ
عَلِيِّ الدَّوْعِيَّاتِ

الطبعة الثالثة عشرة

دار النشر

الدوماجي (علي)

- سهرت منه الليالي . ط . 13 - تونس :

الدار التونسية للنشر ، التونسية للطباعة وفنون الرسم
1987 . 21 سم ، 135 ص .

رقم الايداع القانوني بدار الكتب الوطنية

383 - نوفمبر 1987

● جميع الحقوق محفوظة للدار التونسية للنشر

1 9 8 7

مقدمة

تفيض هذه المجموعة القصصية بروح الدواعج الفتيّة التي
تبدى فيها ألوان من الواقع الشعبى فى دالة تعبير وبراعة
خيال ، فلم ينفك الدواعجى يكرع من أيام شقوته وفنه الى ان
التحم بصميم مشاغل الناس وتطلّع لهم فى الاحياء الشعبية
فكتب (أدبا كبيرا) يتسم بجمال التعبير ونفاذه وبراعة الصور
وتألقها .

لهذا رأينا إعادة نشر هذه المجموعة تكميلا للفائدة واحياء
للكبرى أديب كبير .

محمد كرتيخة للنشر

على الدوعاجي الكاتب البائر !...

يجد الدارس الجامع لما خلفه على الدوعاجي من أدب وقصة ومسرح وشعر عقبات كثيرة وكبيرة تصده عن سبيله ، ذلك ان أدبه مشتت ومبعثر في المجالات والصحف وحتى النشريات التي صدرت خلال الثلث الثاني من هذا القرن بتونس ، ولأن انتاجه المخطوط كالمسرحيات وبعض القصص وعدد من الرسائل ما زال كذلك في ملك عدد من اصدقائه الذين ما يزالون على قيد الحياة ٠٠٠ فكانك تبحث عن انتاج ادبي مجهول لأديب غريب عاش في القرون الوسطى وفي بلاد غير بلادنا ! إذ ان على الدوعاجي قد توفي منذ عقدين فقط ! (I) ٠٠٠

وهذا الكتاب الذي يسر « نادى القصة » ويشرف بتقديمه اليوم الى حضرات القراء يتضمن ما استطعنا التوصل الى جمعه ونشره من قصص مؤلفنا ، يقينا منا بأن هذا السفر هو مساهمة متواضعة في التعريف بعلي الدوعاجي الذي قاسى مرارة « الغلبة » وضيق البوار ومحنة الفبن طوال حياته ، وفي ان يتبوأ على الدوعاجي المكانة اللائقة به في الادب التونسي الحديث خاصة والعربي المعاصر عامة .

(1) يقول الدكتور غازي ان له رواية عنوانها : « شارع الاقدام المخضبة » فمن هو الذي يمتلك هذه الرواية المخطوطة ؟
(انظر فصوص العرب المجلد ١٠٠٠) منشورات الديوان التربوي سنة 1960
ص 216 .

ونحن لم نتجسم بعض الصعاب لو لم ندرك أهمية هذا الكاتب القصصي وقيمة إنتاجه . وفعلا ، فإن المدارس النزيه الذي يبحث في شؤون الادب التونسي المعاصر يتبين بوضوح وجلاء ان علي الدوعاجي هو الكاتب القصصي الوحيد الذي يمثل التمثيل الصحيح - فنا ومعنى - المجتمع الشعبي التونسي في الثلث الثاني من القرن العشرين ، وهو حامل مشعل الادب في تونس بعد أبي القاسم الشابي ، وهو « ابو القصة التونسية » (I) الحديثة بلا منازع ! ...

* * *

ولد علي الدوعاجي بحاضرة تونس سنة 1909 وتوفي بها سنة 1949 . وكانت أسرته تنتمي للطبقة البورجوازية الصغيرة . وقد تعلم العربية والفرنسية في المدرسة الابتدائية . وبعد سنوات من ذلك عمل « قلفة » عند احد كبار تجار الاقمشة بالعاصمة . وكان في تلك الاثناء يعلم نفسه بنفسه ويمعن في مطالعة الروايات والدواوين بالفرنسية والعربية . ولم يطق صبرا ، فانقطع عن التجارة ، وصار يتردد على المجالس الفكرية والمقاهي الادبية . وقد اتصل بأبي القاسم الشابي ثم بالطاهر الحداد حسب ما اكده لنا الاستاذ المرحوم محمد الصالح المهيدي . وخالط ادباء عصره لا سيما زين العابدين السنوسي يوم كان يصدر مجلة « العالم الادبي » . كما عاشر طويلا القصاص محمد العربي ، والكاتب المسرحي عبد الرزاق كركياكة ، والشاعر مصطفى خريف ، والفنان محمود بيسرم التونسي ، والصحافي الهادي العبيدي . والكاتب الاجتماعي عبد العزيز العروى ،

« الجديد » عدد نوفمبر 1962 - تونس : الدوعاجي فان الغلبة الاعتد
توفيق بكار .

و « شائوش الهيئة الاجتماعية » على الجندوبى كما كان يلقب نفسه بذلك ، ومحمد بن فضيلة صاحب صحيفة « الوطن » الهزلية ، وغيرهم من الشعراء والفنانين . وكانوا جميعا يجتمعون بمقهى « تحت السور » بربض باب سوقة الشعبى . وكانوا اخوانا فى « البوهيمية » والادب والفن والفاقة وربما التعاسة ، وباختصار فى « اتراحهم وافراحهم » حسب تعبيره . وقد خلف على الدوعاجى لوحات مشرقة جدا عن هذا « المجتمع البوهيمى » فى صحيفة « الاسبوع » الاسبوعية (1) تذكرنا كما يقول الدكتور محمد فريد غازى برسوم الفنان عمار فرحات ذات الطابع العفوى الرقيق والملاحج الانسانية العميقة (2) .

واكد لنا بعض اصدقائه الادباء : أن على الدوعاجى كان دائم البشاشة ، ذكيا فطنا ، وصاحب نكتة لاذعة ، ولا يبسط يده ولا يمسكها ، مولعا باللهو ومفرغا كذلك بالجد . لا مجال للشك فى هذه الشهادة خصوصا اذا طالعنا قصصه ومقالاته واذا عرفنا انه كان مصورا كاريكاتوريا بارعا (3) .

لقد عاش على الدوعاجى أعزب طوال حياته ، كمدد من اخوانه فى « البوهيمية » . وقال لنا صديق له عرفه عن كتب : انه كان يحب فتاة يهودية من « حارة » تونس . ولأسباب اجتماعية ونفسانية ، تناول على الدوعاجى مع عدد من رفاقه للخدرات ، وأمعن فى ذلك كل الامعان حتى تعفنت رثائه فنقل الى مستشفى « الرابطة » ومات فيه بمرض السل يوم 27 ماي

(1) تحت الصور - « الاسبوع » اعداد : 25 و 26 و 28 سنة 1946 .

(2) الانسانية فى القصة التونسية المعاصرة - المجلد الاول من مجلد اللغات .

(3) انظر مثلا صورة « جولة حول حانات البحر الابيض المتوسط » نشر « الشركة القومية للنشر والتوزيع » سنة 1962 .

لم يعرف على الدوعاجي والده ؛ فلقد توفي أبوه وهو في الخامسة من عمره . وكان محل عناية وعطف ورقة من قبل والدته التي توليت بعده بضع سنوات . وكان على الدوعاجي يعيش عيشة الكفاف والتقصف إن لم تكن حياة الفسق والخرج ، إذ كان مورد رزقه الوحيد هو ما كان يتقاضاه من مال من « الأوقاف » على حساب ميراث خلفه له « الأجداد » .

* * *

إنني أحب على الدوعاجي ، لأنه فنان مؤمن بفنه الى حد الهوس . بل التقديس ، كما كان أبو القاسم الشابي مؤمنا بشعره ، والطاهر الحداد مطلقا لفكاره الاصلاحية وآرائه التحريرية ومعتقداته التقدمية . وقد اطلق على الدوعاجي على نفسه اسم « قلاذمة » ذلك العبد الاسود الذي يعاضد العمال في اشغالهم المرهقة بالترنم والغناء والموسيقى ليسلهم وليخفف عن كواهلهم اثقال الحياة ، وقساوة الشغل واستغلال البورجوازية والمستعمر لهم . « وان ذلك (الترنم) لهو عمل ايضا (2) ! » ...

هكذا كان على الدوعاجي يؤمن بفنه ويخلص لادبه . وما احوجتنا اليوم الى ان نشاهد الكتاب والشعراء يؤمنون بفنهم كايماونه ويخلصون له كاخلاصه . وهكذا نرى ايضا ان على الدوعاجي فنان معاصر لنا بكل ما في هذا التعبير من التجدد والتقدم ! ...

(1) انظر مقال زين العابدين السنوسي في مجلة « الندوة » .

(2) انظر افتتاحية التي كتبها في العدد الاول من جريدته الهزلية « السرور » التي اصدرها يوم 30 اوت 1936 .

ويعطينا على الدواعجى رأيه فى فنه فيقول :

« ان القصة فى حقيقتها صورة صادقة لمنظر شاذ ، وعلى شئنا هذا لا يستقر به القارى ولا يستنكره . وان كاتب القصة هو عرض الواقع البحت بكلمات واضحة نيرة ، وان يمسك زمام قلمه عن التعاليق الزائدة ، وعن وصف شعورة

الشخصى وعن الوعظ الثقيل (1) » .
فهذه هى نظريته الجمالية فى فن القصة التى نجدتها مطبقة فى كافة قصصه ولوحاته . « فنزهة رائقة » تبدو شاذة للقارى ، لما يجد فيها من الصور الكاريكاتورية المتنافرة ومن سلبية مواقف الشخصية الرئيسية فيها . لكنها ليست شاذة فى الحقيقة ، بل هى نموذج لمجموعة من الشخصيات الناشزة والمواقف المنحرفة ، فلا يستقر بها القارى ، بعد الانتهاء من مطالعتها ، ولا يستنكر ما جاء فيها من نقد مبطن مضمن !... ضد الهورجوازية او الاشخاص الذين يتصنعونها ويتكلفونها .

وكاننى بالدكتور محمد فريد غازى قد فطن الى هذه القاعدة القصصية فى فن على الدواعجى فقال : « انه ادرك جوهر القصة » (2) !

وكاننى كذلك بالاستاذ توفيق بكار قد ادرك معانى ذلك . الشذوذ الفنى القصصى « عند الدواعجى ، فقال : « فالواقع فى رأى الاديب الحق معدن الادب يقطع منه الكاتب - بعد التخير - مادته الخام ثم يقبل على هذه المادة كما يقبل الخراف على عجنته ، ولا يزال يتدبرها بتأقب فكره تصورا وتصميما

(1) القصة فى الادب العربى الحديث . الشربا . السنة الثالثة عدد 5 ماي 1946 .

(2) قضية القصة التونسية . الفكر . السنة 4 - العدد 7 - افريل 1959 .

ويعالجها بخالص فنه تمثيلا وتجسيما حتى يسويها بين .
تحفة أدبية (I) » .

وهذا رأى جمالى كله صحة اذا علمنا ان على الدواعجى كان يقول بعدم التعليق وبالتجرد والرغبة عن القاء الدروس فى الوعظ . ذلك ان طريقته كانت تعتمد اساسا على استخدام « عين الكاميرا » كما يقول الدكتور محمد فريد غازى (2) على شاكله الكتاب الأمريكان ؛ واذا علمنا كذلك ان على الدواعجى كان يبحث دائما عن العقدة ! ...

ولا نحب ان يذهب الظن بالقارىء فيحسب على الدواعجى مقلدا للطرق الفنية والمناهج الجمالية فى القصة الغربية الفرنسية منها والامريكية ، وغير عارف باختيار الشكل الملائم للمضمون ، ولا مدرك لانتقاء المضمون الضرورى للشكل ، بل كان على الدواعجى من الادباء العرب القلائل الذين يؤمنون فى زمنه بالتشبع « بروح البحث » فى الميدان الجمالى والمجال المضمونى . وفى هذا المعنى يقول :

« ... انا بطول الوقت سئمتا (الرسائل الملقاة من الباخرة على الامواج) و (الهروب بعد منتصف الليل الى الجيزة

فى الرولس رويس التى تقطع مائتى كيلومتر فى الساعة) و (ابن العمدة الذى دعا البرنسيس المجرية الى شراب الشاي على مائدته فتبتسم واصابع يدها تعبت بسيقارة تركية) وهذه (الاكليشيات) كما يقولون التى نجدها فى قصص العالمين والتى لو ابدلنا اسمائها الشرقية باسماء غربية لانطبقت

(1) « التجديد » السنة الثانية العدد الاول نوفمبر 1962 .

(2) المقال المذكور .

وبفداد الا ما يصفه الكاتب الاوروبي لوزار هذه المدن (1) «...»

الا ترى ان على الدوعاجي قد عبر في هذه الفقرة الوجيزة
عن المفهوم الذي نبحث عنه في أدبنا الحديث ألا وهو الاصاله ؟
نعم الاصاله ! تلك هي القاعده الاساسية التي تتركز عليها
قصصه وفنه الذي ينم على سعة اطلاعه على القصة الغربية
والقصة الشرقية .

لقد قال على الدوعاجي للدكتور محمد فريد غازي : (2)

« ان الكاتب الغربي الذي اثر في تأثيرا قويا هو « جاك
لندن » مما جعله يختار عنوان مسرحيته « راعي النجوم »
المنشورة في العدد الخامس من مجلة « المباحث » من عنوان
رواية هذا المؤلف الامريكي » .

ولكننا مع الاسف لا نعرف ما هي الروايات الغربية الشهيرة
التي اطلع عليها على الدوعاجي في عصره .

* * *

كان على الدوعاجي يفرف من الواقع التونسي الشعبي
الغرف الواسع الكبير . كان يبني به فنه القصصي . فلقد
اولى اهتمامه بالطبقة الشعبية المعذبة في طلب الحبز ، واعتنى
بها بالغ العناية . واغلب الظن انه كان يعطف عليها ويرق
خالها كثيرا .

ومن يطالع المجموعة القصصية في هذا الكتاب يلاحظ بلون
شك « الخلاق » و « المؤدب » و « العمة » و « الاديب البوهيمي

(1) مقاله المذكور

(2) الدكتور غازي مقاله المذكور .

السكير » و « الملاك » و « القرباجي » و « خدام الحزام »
و « المجرم » و « الصانعة » الذين كان على الدواعجي يعاشرهم
صباح مساء في « باب سويقة » و « نهج الكبدية » و « الخلفاوين »
و « ريفي باب الجزيرة » . هؤلاء هم الاشخاص التسميون الذين
كانوا يمثلون في الثلاثينيات والاربعينيات من هذا القرن
الشعب التونسي الذي قاسى الاستغلال البورجوازي
والاستثمار الاستعماري ، فدخل في اعماقهم ، وسبر
ضمايرهم ، وعبر عن اتواقهم ورغائبهم بالسخرية اللاذعة
والتهكم المتشائم .

ولشد ما اعجبتني « سهرت منه الليالي » التي اختارها
« نادي القصة » لتكون عنوان المجموعة : هذه القصة التي ينلذ
من خلالها الدواعجي ليصور لنا قلب امرأة تكتم حبها لزوجها
رغم ما تلاقيه من معاملة سيئة من قبله !...

وكذلك « الركن النير » حيث يسمو الدواعجي من
الاحاسيس الخصوصية الى المشاعر الانسانية و « يشرح » قلب
امرأة تتدفق في شرايينها المحبة كان يظن به الظنون !...
وكذلك « امن تذكر جيران بلدي سلم » اين التقط فناننا
بعدسته مشاعر امرأة اختلست دراها معملودات لتمسح دموع
صبي جائع شقي !...

عالم الدواعجي زاخر بالمشاعر والقيم . دنياه مكتظة
باحاسيس الانسان المعمر المقهور الذي يرجو بصيصا من النور
من شموع « العتمة باخير » ! كونه مزدحم ايضا بالصور
الكاريكاتورية التي تهكم على بورجوازي « نزهة رائقة » كما
كان يتهم موليار ، فيضحك من النظام الفاسد القائم في

زمنه ، ويفضحك من نفسه ايضا ، لانه عاش باثرا مغبونا مغلوبا
طول حياته (I) •

ولقد صلق فيه قوله :

عاش يتمنى فى عنبه مات جابولو عنقود
ما يسعد فنان القلبه الا من تحت اللحود

عز الدين المدنى

كتر الفقراء (*)

انصتوا الى الشاعر :

كان فيما مضى ولا أدري فى أى أرض زوجان من أفقر الناس
لا يملكان شيئا ، ولا شيئا من الشيء • لم يكن معهما خبز
ليوضع فى السلة (القفة) ، ولا قفة لوضع الخبز ، ولم يكن
لهما بيت يضعان فيه قفتهم ، ولا لهما أرض يبنيان فيها بيتا •
كانا بلا أرض ولا بيت ولا قفة ولا خبز •

إنهما تعسان •••
كانا يشعران بفقد البيت ، أكثر من فقد الخبز ، إذ
يستجديان المحسنين فواضل الخبز ، أما البيت ••••

كانا يودان لو قضيا العمر صائمين فى مقابل بيت يمكن
لهما فيه أن يوقدا نارا ، يوقدانها من أغصان الأشجار ،
يصطليان ويتحدثان على وميض لهيبها •

فى الحقيقة ، إن المهم فى هذه الدنيا ، الألزم من الغذاء هو

(*) قصة شعرية لشاعر ايطاليا الشهير غابريال دانييزيو •

لكية بيت يأوى ، إذ بدون هذه الأربعة حيطان يصبح الانسار
والحيوان سواء ...

* * *

في ليلة حزينة ، ليلة عيد الميلاد . ليلة حزينة في وجهيهما
بالأخص ، أحسا فيها بتعاسة أكثر من ذي قبل .

ففي تلك الليلة ، كل الآدميين يوقدون نارا ، يصطلون على
لظاهما . وفي تلك الليلة الظلماء ، وفي الطريق العام ، كانا
يرتعثان من شدة القر . واصطدمتا أقدامهما بقط ، واحتج
القط على معاملتهما له بعواء .

كان هذا القط بثيسا أكثر بؤسا منهما . لا يملك إلا جلدا
يلم عظامه وقليلًا من الشعر فوق هذا الجلد ولو كانت
فروته خضبة لكان أحسن حالا مما هو الآن ولما التصق جلده
بعظامه ولو لم يلتصق جلده بعظامه لأمكنه أن يصيد الفئران ،
ولما بقى هزيلا كما هو الآن .

ولكنه لا يملك فروة ، ولا يملك جلدا أو عظاما . لهذا كان
بثيسا ، كثير البؤس .

* * *

كل الفقراء والبؤساء أسخياء ، وهم يتعاونون فيما
بينهم ...

... أمسكا القط ، لا ليأكلاه ! بل ليعطياه قليلا من خبز ،
كانت استجدته الزوجة . ولما أكل القط ذلك الخبز قصدا الى
كوخ متروك



لم يجدوا فى ذلك الكوخ سوى ثقب تنبثق منها أشعة البدر ،
عندما يسمح السحاب بذلك ...

غابت أشعة البدر ، وغاب القط معها ، وبقيا هما جالسين
فى تلك الظلمة الحالكة ، فى هذا الكوخ الحالك ، والذى يزيده
جلوكة فقد النار .
قال :

لو أمكن لنا إيقاد نار فى هذا البرد فنصطفى ، ونتسامر على
ضوئها .

لكن - واسفاه - لا نار فى الكوخ ، لأنهما تعسان كل
التعاسة .

وأخيرا تفتنا إلى جمرتين تلمعان فى طرف الكوخ ، جمرتان
ذهبيتا اللون ... ففركا أيديهما سرورا ؛ وكان الرجل يقول
لزوجته :

- هل تحسين خلاوة الدفء التى أحس بها ؟

.. يقول ذلك ، وهى تبسط يديها فوق النار ...

- انفخ أنت قليلا .

فقال الزوج :

- كلا ، تدوم الجمرات بلا نفخ أكثر .

وجعلا يتحدثان عن الماضى ، بلهجة ليس فيها أى حزن ،
لأنهما شعرا بسعادة ، وهما يتنفسان على أنفاس هاتين
الجمرتين .

وهكذا الفقراء يكفيهم القليل يسعدون به .
وأما ليلتهما بين الحديث والتدفئة ، والجمرتان دائمتا
الوميض فى تلك الزاوية المظلمة من الكوخ .

وعند انبثاق الفجر ، وجدا نفسيهما أمام عيني ذلك القط
الذي اطعماه من خبزهما البارحة .

باتا في دفء من بريق عيني القط ...

وقال القط : كنز الفقراء وهم ! ..

مارني

كانت الشقة المجاورة لشقتي شاغرة • وكان يسكنها جماعة من الطلبة • وكنت أحمد الله جهرا وسرا يوم أن سمعتهم يعتزمون ترك البيت لصاحبه • وكم كان فرحي شديدا عندما رأيت عربة النقل مكتظة بالسجاجيد والمصابيح والقفاف على اختلاف ألوانها وأحجامها •

تخلصنا ، والحمد لله من مجاورة الطلبة • وسكنت الحارة من صراخهم وخصامهم ومراجعاتهم ، وهي متشابهة الضججة حتى أنك لا تفرق بينها مهما أوتيت من دقة السماع •

كنت أترقب في شوق شديد مقدم أجواري (الجدد) وقد أعلمتني صاحب البيت أنها (عائلة) لا تثير صراخا ولا تراجع دروسا ، ولا تربى كلابا •

لم يطل انتظاري حتى أقبل الساعي يحمل مكتوبا من صديقي (س) يعلمني بأنه في حالة نزاع ولم يبين في مكتوبه إن كان في حالة نزاع أو نزاع ، وبأنه ينتظرني على أحر من الجمر ...

لم يسعني إلا أن أعيد مطالعة المکتوب • ثم أن أعزم على زيارة هذا الصديق (المنازع) ، وصديقي هذا السيد (س) يقيم في مدينة بنزرت) والسفر إليها سهل بعد أن اخترت السيارة • ولم تبق إلا صعوبة إيجاد أجرة السيارة •

تركت البيت ، وترقب الأجوار ، ورؤية الحريم ينزل من العربة تحت مراقبة رب العائلة الفيور •

تركت كل هذا ، وذهبت أنتش عن رجل طيب القلب ، كريم اليد يرضى بأن يقرضني أوبعين فرنكا - وهو مبلغ تافه كما ترون - • وفعلًا ، وجدت ضالتي في شخص شيخ إسرائيلي يفيث الملهوف بغافض قدره خمسون في المائة •

كم كانت دهشتي عظيمة عندما وجدت صديقي (س) يتدأى من نزعته أو على الأصح من زكامة في « بار » من بارات مدينة بنزرت •

أعلمت الصديق بما ضحيت في سبيل نزعته الكاذب من مال ، وآمال ، فضحك من سخاوتي • وصفق مناديا الخادم الذي بقى في خدمتنا ليلة ويومين •

وهكذا ، لم يمكنني القضاء أعني : القضاء والقدر من رؤية العائلة تنزل من العربة تحت مراقبة رب العائلة الفيور •

• • •

قال صاحب البيت ، وهو يرفع حاجبيه الى عتبة البيضاء :
- يجب أن تدفع أو أن تترك البيت !

قلت :

- نعم سأدفع إن شاء الله •

قال :

- إن شاء ربى .. إن شاء ربى .. إنك لم تدفع القسط
الأول من ثلاثة أشهر بدعوى أن مجاورة الطلبة تقلق راحة
جناحك . والآن ما يقلقك ؟
قلت :

- ما لا أود قوله له ! .. دفع الفلوس !

قال :

- طبعاً ... يقلقك هذا ... ثم إنك لا تنوى امتلاك
البيت بطريقة عدم دفع الأجرة ؟

قلت :

- لا أود امتلاك مثل هذا البيت المتهدم . ولى والحمد لله
من القصور فى جنة الخلد ما يكفى .

قال :

- والآن ؟

قلت :

- اسمع يا عم ... الآن وقد خلصتنا من ضجة الطلبة ،
وجاورتنا هذه المرأة اللطيفة ، سادفح ما يجب دفعه فأرجوك
الاحتفاظ بوصلك هذا الذى سادفح قيمته بعد مرور ثلاثة
أشهر على الأكثر .

فأتنى أن أذكر أن جارتى التى سكنت الشقة فى يوم غيابه
عن العاصمة كانت امرأة سويسرية ، على حد قول صاحب
البيت ، . وهى فى الثلاثين من عمرها ، شقراء الشعر . وهى
لم تنزل من العربة تحت مراقبة زوج غيور ، لأنها مطلقة
ومفرمة ، والهة بأشعة الشمس الأفريقية .

...

يوم 12 ماي :

علمت امس من جارتى أنها ليست بسويسرية الأصل .
وكل ما فى الامر أنها كانت مرافقة لرجل من أغنياء سويسرا
عودها على حياة البذخ والانزلاق على الثلج والتطرق بلهجة
المانية . أما هى ، فهى برتغالية مائة فى المائة . وهى معجبة
بسمة بشرتى وبسواد شعرى الأجدد كل الإعجاب ، وهى
تود اقتناء « منتو » من الفرو ثمنه 75 فرنكا .

اقتنيت لها هذا المنتو البديع صباح هذا اليوم بعد أن خفض
صاحب الدكان اثنين فى المائة من الثمن . وهذا أعده صفقة
رابحة - حسبما قالت السيدة - عندما استلمت
المنتو . . . ما أحلى نطق كلمة « مرسى » باللهجة البرتغالية
(أعنى الألمانية) . أود أن أشتري لجارتى (منتو) آخر بشرط
أن تعيد لى قولها « مرسى » بهذه الرقة .

يوم 15 ماي :

دعوت السيدة للقاء فى بيتى ، فقبلت فى بشاشتها
السويسرية . وكانت معجبة بصحن « العصيان » كل الإعجاب .
وهذا ما أثار غيرتى قليلا وأعجبت أيضا (بالكنويطة) بعد أن
أطنبت فى تقدير قيمتها التاريخية . وقلت : إنها صنعت من
مائة وعشرين سنة لأجد ملوك القيروان !

وأحمد الله على جهل والدتى اللغة الافرنسوية . وإلا لما قبلت
أن أزيد فى عمرها بمثل هذا البسط .



صاحب البيت :

- الفلوس !!! الفلوس .

أنا :

- !... الفلوس !!! .

صاحب البيت :

- ... تدفع أو أحجز !

أنا :

- وعلى أى شيء يوقع حجزك ؟

صاحب البيت :

- على الأثاث طبعاً .

أنا :

- تفضل .

صاحب البيت :

- ماذا تعنى ؟ نعم سأحجز .

أنا :

- قلت لك تفضل ، ...ف...ض...ل ، واحجز على ما بقى . احجز الكانون والسخان ... ها ها ها ! ...

صاحب البيت :

- هذه الرقاعة التى يتحدث عنها الناس ! هذه الرقاعة وإلا فلا رقاعة فى الدنيا ! القسط الأول لا يدفع بمعنى أن السيد تقلقه مجاورة الطلبة . والقسط الثانى ، لأن جنبابه متفبيب عن العاصبة والقسط الثالث .. سأحاكمك وستشترك البيت يحول الله صاغرا بعد أن أحجز . قلت سأحاكمك ... وسأفعل !

أنا :

- لا • لا تفعل •

صاحب البيت :

- ولم لا أفعل ؟ ستري !

أنا :

- من فائدتك أن لا تفعل لو قاضيتني لطالبتك بتعويض •

صاحب البيت :

- ماذا ؟ تعويض ؟ وهل سقط عليك جدار ؟

أنا :

- سقطت على أفعى ! أفهمت ؟ أفعى سويسرية أو برتغالية
امتصت كل ما أملك وأنت السبب في هذا ! •

صاحب البيت : (فازعا) •••

أنا :

- (وقد شجعني فزعه) نعم أنت • ألم تقل إنها أرملة
مركيز هولاندى ؟ ألم تقل يوم أن سألتك عنها : إنها ابنة ملك
المسامير ووارثته الوحيدة ؟ ألم تقل كل هذا والحقيقة هي ما
تبين أخيرا من أنها نصف مجنونة لا تملك إلا وجها صقيعا ،
وشتطة التواليت • هذه ابنة ملك المسامير ! لم تترك لي من
البيت إلا مسمارا واحدا من وضع معامل والديها المحترم •
وهذا المسمار يحمل غربالا « سقاط » • ارجوك الاحتفاظ
بوصلك هذا الذى سأدفع قيمته بعد مرور ثلاثة أشهر أخرى •
هذا إذا لم تسكن الشقة المجاورة جارة لطيفة من هذا الميار •

في ساطي، حمام الونف

كانت عربة القطار مكتظة بجسم امرأة من الوزن الثقيل
والثقل جدا . ومما زادها ثقلا أنها كانت ترتدي ثوبا أحمر ،
وتلبس شفاها وأظافر من نفس اللون . وكما أنها ملأت العربة
بلحمها فقد ملأتها أيضا بحركاتها ، وبابنها . ولا شك في أن
ابنها سمين كبير الرأس ، ويلبس اللون الأحمر . وأظن أن
لبس الأحمر ورائي مثل السمينة في هذه العائلة . وكان الصبي
يصرخ صراخا كأنه بكاء ، ولكنه ليس ببكاء . وكل من في
القطار تضايق من هذا الصراخ . وود لو أرضى هذا الصبي
بما طلب ، فتكاثرت عليه الأسئلة : هذا يسأله عما يريد .
وذاك يرقصه على ركبتيه . وذاك يربت على أنفه ، والصعب
يزداد غضبا ويزداد صراخا ، وكأنه يصرخ للصراخ نفسه .
لا يريد بذلك سندويشا ولا زمامير . الحق لقد تحملت هذا
الشتى أربعة . ادراج . ثم شعرت أنني أسرفت كثيرا في تحيل
ما لا يطاق فهاجرت الى عربة أخرى .

لم أر أحدا في بادئ الأمر ، قدخنت مطمئنا أننا . حتى
اجتزت . البوكس . الثاني . وهنا لقيت شابا وشبابة أو ما
نسميه في لفتنا الكلاسيكية (بروميو وجولييت) روميو شاب
له متر وتسعون سنميترا ، كثير الشحوب ، طويل الأنف

كانه شاعر . وجولييت صقلية ، ربة القامة ، تلبس اللون الأصفر الفاقع - كفا تلبس الملوك فروو الهرمين - وكانا يتكلمان جمسا ، ويستعيطان عن الفوغاء بكثرة حركات أيديهما ، فروميو يرفع يديه الى أعلى ثم يمد يده اليسرى الى الامام . كانه يقول : « أحبك وأقتل أباك بخنجر إذا ... » وجولييت تدبر أصابعها حول بعضها كأنها تجيبه : « سأطرز لك منديلا تفتخر به أمام نائب القنصل » .

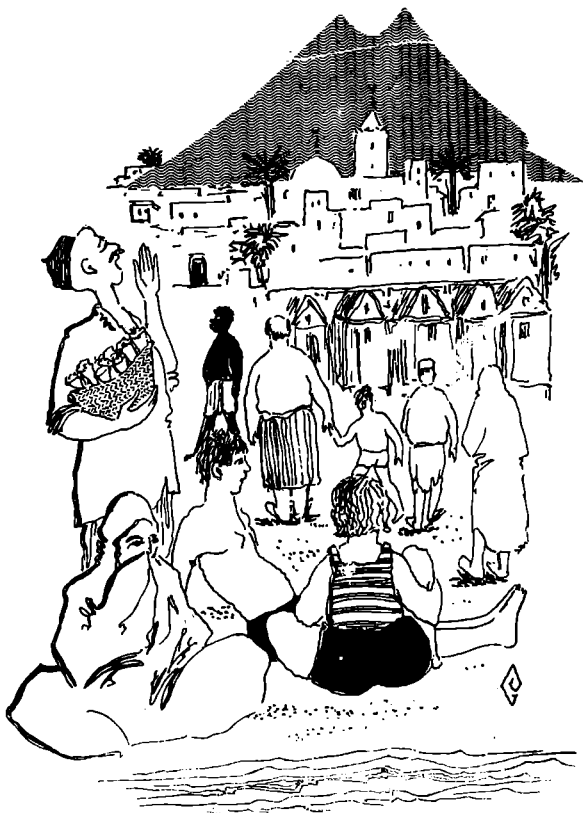
هذا لا يطابق ؟! أجالس عاشقين ولا أرى ولا اسمع منهما إلا رموزا ... لم أركب القطار لهذا ! نعم ركبت ليحملني الى حمام الأنف . والمهم أن أصل الى حمام الأنف فلاترك العربات كلها ، وأتم طريقى جالسا على سلم العربى ، من الجهة اليمنى ، أتفرج على أعمدة التلفراف وأحسبها اذا تمكنت من ذلك .

من المحطة الى الشاطىء أمشى مسرعا للتفرج على المستحمين . والعجيب أنه ليس بحمام (الأنف) بل هو حمام بقية الجسم أيضا من افخاذ ونهود و... و... و...

كان الشاطىء ملأنا بباعة الكاكاوية والليموناضة . والمستحمين ، والملاحف البيضاء البديعة .

باعة الليموناضة والكاكاوية معروفون من الجميع بوساختهم ورقاعتهم . والمستحمون رجالا ونساء ، خالعون ملابسهم وحياتهم ، وهم مرة يحسون الحر فيرتسون فى الماء . واذا أحسوا البرد فى الماء انبطحوا عارضين أجسامهم لأشعة الشمس ! فهم بين البرد والسخانة طول يومهم .

والعادة أن يستحم الانسان يوما كاملا ليقتبر مستحيا داخلها « انتيرن » . أما من ينزع ليلبس بعد نصف ساعة على الأكثر فهو مستحم أو مستحم خارجيا « إيكسترن » .



والملاحف البيضاء شيء آخر . الملاحف هذه مخلوقات اتبعن سنة الجدد فأسدن على أجسامهن الناعمة ملاحفهن . واتبعن سنة الوقت فخرجن الى الشاطئ . ينتقدن ترجيل شعر عمرو وكى بنطلون زيد . وهذه تنسى أنها ملتحفة فتريك وجهها وسيما . ثم تتذكر فتختفي داخل ملحفتها بعد أن تبعث الكهرباء في أجسام أربعة من شبان الشاطئ . كانوا يراقبونها من نصف ساعة .

كنت أسير في هذه الطريق ، وأنا أتخيل كل هذه الأجسام في ملابسها الشرقية الفرناطية ذات السراويل الواسعة . وعن يرقصن رقصة البطن اللطيفة في إحدى قاعات الحمراء . وإذا بمصفور يتمرن في مناورة جوية ؛ فرمى على شاشيتي قذيفة لم أظن لها ، لولا ضحك المارة وإشاراتهم الى رأسى الكريم ، ففهمت بشعورى أن فى رأسى شيئا أثار فضول كل هؤلاء الأفاضل ، ونزعت الشاشية فوجدتها مزدانة بقذيفة المصفور اللعين . من من الشعراء قال عن المصفور إنه ملاك ؟ لو وجدته لأريته إبليس . . . لم استحسن البقاء بحمام الأنف أو « البسين » بعد أن عرف أنى أحمل على رأسى « نيشانا » لمناورات المصافير فكررت راجعا . ومن فضل الله وجدت القطار خاليا إلا من رجل عجوز يعرف معرفة جيدة أسماء اصحاب القيلات المزروعة فى طريق القطار من حمام الانف الى تونس .

المصباح المظلم

- 1 -

كان ثلة من الصبيان يتمرنون على قذف الحجارة بخيط المطاط ، أصاب أشطرهم الهدف وهو « أنبوبة » المصباح الكهربائي . ثم تفرق شملهم بأذان المغرب الذي جمع التفة للصلاة في مسجد الحومة .

أضيئت مصابيح الشارع إلا هذا المصباح المكسور ، وبقي كاشجار الحريف . وكان رذاذ المطر يزيد هذه النقطة المظلمة من الشارع كآبة .

كان بجانب هذا المصباح دكان حلاق عليه « يافطة » كتب عليها باللون الأحمر « الحلاقة العصرية » ورسم بجانب الكتابة رمز الحلاقة « موسى » ولقد فهيت بعد علامة اللون الأحمر صناعة الحلاقة .

(*) هذا العنوان اخذناه من الجزء الثاني من هذه القصة التي لم نعرض لها بقيتها (نادى القصة) .

خرج الحلاق من حانوته فرأى المصباح مظلما ، ورأى يافطته .
 لا تقرا في ظلام هذه النقطة من الشارع . فخلعها من موضعها
 وأدخلها داخل حانوته . ثم التفت الى المرأة ليصلح من شاربها
 الأسود القائم الى فوق بالشكل الذي تسميه الماجنات من نساء
 القرن الفائت بمعلق القلوب . هنا سمع الحلاق وقع خطي في
 الشارع المعطر المظلم . وتطلع ككل فضولي لا يريد أن يمر أمام
 دكانه إنسان بدون أن يعرف من هو والى أين يقصد . لكن
 ظلمة الشارع حالت دون استطلاع الفضولي . فوقف في عتبة
 المحل .

ودفعه الاستطلاع ، فتخطى خطوات نحو المصباح ، فرأى
 امرأة ملتحفة بيضاء ، واقفة ، تتظلل تحت ستارة دكان بجانب
 المصباح .

كان رذاذ المطر قد فعل في شعر الحلاق ما لا تفعله
 « الفركسيون » وأحس صاحبنا بهذا . فبقى حائرا بين
 الدخول لترجيل شعره ، وهو يفار عليه ، ويعرضه كأنموذج
 لصناعته ، وبين معرفة هذه المستندة الى المصباح ؟ ومن
 يدري ؟؟

فربما تعرف إليها وأدخلها دكانه الأنيق الحاوي من حق
 « الغبرة » وقوارير العطر ما يستهوى قلب أشرف بنات حواء .
 وليس كالطيب في استهواء قلوب النساء . من يدري ؟؟

اخيرا ، غلبت عليه طباع (.....) فدخل دكانه .
 واستعاد وقفته « الكليشي » أمام المرأة ، وأخذ يسب غلامه
 الذي وضع المشط في غير محله .

« هذا الكلب ابن الكلب ، أقول له وأعيد : ضع المشط على
 اليمين ، واليمين لا يضعه إلا على الشمال ، ولا يفعل إلا خلاف
 ما أوصيه به . لكن ظنه « شلاوي » يستعمل اليسرى مكان

وكان نكتته هذه أعجبتة . فأخذ يعيدها بصوت عال لعل
لأنثى الواقعة بجوار دكانه تسمعه . ولا بد أنها سمعته ما لم
تكن صماء ، ثم أعقب ذلك بضحكة عالية ، وهو ينظر للمرأة
ويمشط شعره المبلل . وأطال النظر في صورته المنعكسة على
المرآة لأنه وجد للمرأة المليون وجهه وسيما جذابا ، خصوصا
شاربيه السوداوين القائمين الى فوق .

فلماذا لا يخرج لهذه الواقعة فيجرب جاذبيته فيها ؟

وفلا خرج صاحبنا للشارع ، وأجال نظره الدقيق الذى لا
« يخطئ الشعرة » لكن الأنثى ذهبت وفلتت الصيدة فاغتاز
وأخذ يسب المطر والشعر والنساء ...

- 2 -

خرج المصلون من صلاة العشاء ، واضعين برانيسهم على
رؤوسهم ، يسرعون الحطى الى دورهم . ومرورهم أمام الحلاق
ذكره وعده لصديقه اسماعيل فى قهوة « الحاج على » إثر صلاة
العشاء ! فلبس جيته ، وسوى شاشيته على رأسه ، وأطفأ
المصباح المعلق فى سقف الدكان . ثم أخذ يفتش فى كل جيوبه
عن المفتاح حتى وجده أخيرا فى حقة القصدير حيث اعتاد
وضعه . فأغلق الباب . وفتح سبحاته . واستعد للذهاب .
والتفت فجأة الى ناحية المصباح المظلم ، فهوى المرأة واقفة .

قال فى نفسه : « هى نفسها التى كانت واقفة ؟ لا . تلك
ذهبت بدليل أنى لم أجدها عندما خرجت للمرة الثانية
لكن من هذه يا ترى ؟ وما سبب وقوفها بجانب المصباح
كالاخرى ؟ » سأعلم كل هذا منها ،
قصدها وابتدأها :

- مساء الخير يا لله !

- مساء الخير .
- تحبش نعطيك بسعابتى ، اطنى الشتاء حاصرتك ،
نوصلك وبين تقصد ؟
- المقصود ربي !
- معلوم ! لا مقصود غيره . لكن وقوفك تحت الفئار ...
والشتاء قالت شديدا ، والدنيا ظلام شيء يخوف !!!
- الخوف من الله !
- ما فيهش كلام ! الخوف من الله ومن اللى ما يخافش من
الله والدنيا مليانه بيهم .
- هانى قاعدة نشوف .
- فاش ؟
- فى اللى الدنيا مليانه بيهم . إبدأ بيك أنت لا بأس تكلم
فى ؟ ومنين تعرفنى ؟
- المعرفة ... لا محاله ما نعرفكش لكن نعملوها معرفه
جديده .
- برا على روحك وخي يهديك ، وخلينى لاهيه فى هنى .
- تحبش نعاونك عليه ؟
- اشكون هو ؟
- لا . همك اللى لاهيه فيه (وشجعه سكوتها فاتم) رانى
ما عنديش حتى نيه كان فعل الخير . اسمع كلامى نعطيك
معايا ...
- مليح ... لكن بشرط ما تلصقنيش وما تكلمنى حتى
كلمه .
- قالت هذا ، وهى تهدد بالظب بنصر رآه فى يد امرأة ؛
فاجاب الحلاق ، وهو ينظر الى يدها والى الماسة الثمينة التى

تلمع وسط الظلام .

ـ الله يبارك قبلت تفضل .

ـ 3 ـ

كان صاحبنا خبيراً بالمطور حسب صناعته . ولكن رائحة
عطر هذه المرأة لم يعرفه . فجعل يسأل نفسه : « هل هو
عطر « الفرفيل » أم « ليلة باريز » ؟ » وأخيراً سألها :

ـ بالله آش اسم ها الريحه اللي عندك ؟

ـ ماو اتفقنا الكلام . لا ؟

ـ لكن انا صنعتي حجام حببت نعرف اسم ها الريحه
ببرك !

ـ من كل مشوم نواره !

ـ عظيم واشكون شراها لك ؟

ـ اشنوه ؟

ـ قتلك منين شريتها ؟

ـ هذا ما يهكمش واسكت وإلا خليني نوللي على ثنيتي ؟

ـ سكت . الله يبارك كيما نجنيش نكلك نسكت خير .

والناس اللوله قالوا اذا الكلام فضة السكوت . من كل
مشوم نواره ، اسم حلو آش عندي ما نقول ، ولريحة طيبة
شميتها من اللي كنت في حانوتي . وغلبت الروايح اللي عندي
الكل . وقت التي كنت واقفه تحت الفنار ما افهمش
النوه اشنيه وقفتك . لا هاني سكت .

ـ إيه اسكت . وانت اسم الله العظيم تشد ما تسيب .

ـ صلي غانبي ؟ آشي باشي تقول .

ـ انا نفلك اسكت وانت تفلني آشي باشي تقول ؟

- لا ٠٠٠ على خاطر ريتك واقفه ٠ ومن بعد عاودت حزرت ما.لقيتكش ٠٠٠ وين جيت مروح نلقاك وليت !
- هز يدك على كتفى !
- طيب ٠٠! لكن نحب نعرف !
- أوووفه !
- وين ماشيه ؟
- لواش ؟
- باش نعرف أما ثنيه نقصدها ٠
- السبخه ٠
- سبخة ترنجه ؟
- لا سبخة باب الجزيرة ٠
- ايوه خلينا الثنيه وانا لو كان عرفت رانا خدينا ٠٠٠
- يزي يزي هيا نوليو ٠٠٠ لو كان نشدتنى على هذا اللول رانا وصلنا ٠

رجعا الى نهج الباشا ثانيا ٠ وما كادا يسيران بضع خطوات حتى اشتد المطر ، فالتصقت به المرأة وأحس بحرارتها ٠ وجعلا يسيران ، وكأنهما شخص واحد حتى مرا بالاصباح الكهربائي ٠٠٠ وبدكانه فسألته ، وهى تختنق بكلماتها :

- عندك دار ؟
- اما لا نبات تحت الحيط كى القطاطس ٠
- تقد تنجم دخلنى نبات فى دارك لكن أنت متزوج ؟
- الله يلف ما زلت عازب رأسى رأس الوالدة ٠
- نمشى معاك لدارك بشرط ما يرانى حتى حد ! واللى نقلك تعمل. فهمت ؟

قالت هذا ، ولو أمكن أن يرى وجهها لرأى دمة كاللؤلؤة ترقرت من عين المسكينة ٠ لكنه أجابها ضاحكا :



- على الرحب والسعة ... هذى نعمه غير مترقبة (وهى عنده أجمل عبارات المجاملة) وأرعشتها .

كانت متكئة على جانب الكنبه . وكان جالسا على كرسي قبالتها . فسألته عن الساعة . وبعد أن أعلمها أنها الثانية بعد منتصف الليل ، أخذت سيقارة وأشعلتها . ثم رفعت منظرها الى صاحبها الجديد وقالت :

- تعرف رانى ما نيش كيف ما تسخايلنى ...

- العفو العفو - وأنا آش سمعت من فمى ؟

- موش لازم نسمع من فمك ... أما حبيت نقلك اللى أنا جيت معاك ما نيش عاشقه فى عينيك ، ولا فى مشطه شعرك ، ولكن أنا عملت عملتى باش ترد الفازيته وناخذ بشارى .

هنا صاح الحلاق مصعوقا :

- بالثار ممن ... منى ؟!

راعي النجوم

كان (هو) رجلا عاريا ، وكانت (هي) امرأة عارية إلا من
ظلام النفق . (هو) ينظر فلا يرى شيئا . و (هي) تترقب
(متى تراه) على الجمر . وكانما ثقل عليها هذا الظلام ، وهذا
الصمت ، فآخذت تحادثه :

هي - قل .. السمت انت .. راعي النجوم ؟

هو - أنا هو .

هي - ما اتعبك وأثقل كاهلك حتى جعلك لا تراها ؟

هو - أتعبتني الراحة .

هي - وما انت صانع الآن ؟

هو - (لنفسه) ما أكثر أسئلة المرأة !! (لها) إني لا

أجد الوقت لثلا أصنع شيئا .

هي - أتعرف « الأجدية » ؟

هو - ذاك مما لا أزال أذكره .

هي - اكتب ...

هو - ألا ترين الظلام يشملنا ؟

هي - أنا .. أنا لا أرى الظلام في الظلام !! ولكن غن .

- هو - أتودين أن أضحك ؟
- هي - أود ذلك ككل امرأة ..
- هو - إذن ، أعيريني إبرة .. اخذك بها .
- هي - (تضحك) ألا تستطيع ذلك بدونها .
- هو - أستطيعه لو كنت على خبث الآخرين .
- هي - (تضحك) أرى أنك لا تستطيع شيئا مطلقا مثل الآخرين وخبثتك هذه دفعتك الى التطلع ..
- هو - (مقاطعا لها) لا تذكرى النجوم من فضلك ...
- قبل أن تطهرى فمك من الضحك .
- هي - هذا حق . إن الضحك أطهر من الطهارة نفسها .
- هو - (لنفسه) : يوجد ضحك .. وضحك .. (لها)
- أتضحكين منى أو على ؟
- هي - وهل ثمة فرق ؟
- هو - أو أنت مثلهم لا تعنين بالفروق ؟
- هي - أنا لا أعتنى إلا بك (النور ينير الظلمة) وما أنا
- أراك .
- هو - هذا برق .. ما هذا بنور .
- هي - هذا الفجر .
- هو - هذا الفجر .. ما أجمله ! .. لم أرك قبل الساعة .
- هي - (يائسة) : هو ينظر الفجر ولا يرانى أنا ؟! نعم هو ذا الفجر كما وصفته لى أمى .
- هو - أمك ؟ وهل رأت أمك فجرا ؟
- هي - نعم فى ليلة وكانت صائمة ..
- هو - تصوم ليلا ؟

هى - ليس فى استطاعة الفقير أن يختار أوقات عبادته .
هو - وهل كانت أمك فقيرة ؟

هى - (فى خيلاء) : نحن نتوارث الفقر فى عائلتنا منذ
الأجيال الأولى .
هو - عجيب .. ولماذا ؟

هى - ما هذا الاستطلاع ؟ تود أن تعلم كل شيء ؟
هو - كل شيء ! ما أقخم هذا التعبير ... الواقع أنى
أجهل كل شيء سوى : لم تتوارثون الفقر فى عائلتكم ؟
هى - ليس لنا مكان يحفظ ثروتنا .
هو - أعطنيها .

هى - ستقتلنى ضحكا (تضحك) أعطيك ما لا أملك ؟
وأنت أليست لك ثروة ؟

هو - هيه ! كان لى كنز كله أحجار ثمينة .
هى - قل مقطعا ، كالموجود خلف هذا الجبل .
هو - قلت لك أحجار ثمينة .
هى - هنا ! كل الأحجار ثمينة ما دامت تقينا الحر والقر .
هو - كانت أحجار كنزى آمن من تلك
هى - ما تبنى بها ؟
هو - لا تصلح للبناء .
هى - ولماذا ؟
هو - لأنها ثمينة .

هى - وما جعلها ثمينة ما دامت لا تصلح للناس ؟
هو - لأنها نادرة تشرق كما كانت تشرق عيناك عندما
يتنى .
هى - هذا ممل لا أفهمه . وأين كنزك الذى لا يصلح لشيء ؟

هو - أودعته الأرض ولكنى غفلت عن وضع علامة له ،
وضاع تفتيشى سدى ..

هى - أتود أن أفتش أنا لك عنه ؟

هو - ألا تسكتين ؟

هى - أر تسكت المرأة ؟

هو - ما أجمل هذا النور .. ما أجمل لون هذا النور ..

هى - النور له لون !! وهو فرح به ، لا يبرى المسكين أنه
على هذا النور سيكتشف الغرباء مكان الكنز ، وسيحتفظون به
خصوصا اذا كانت لهم امكنة يضمنونه فيها .

هو - ليكن .

هى - ما هذا الشنوذ ؟

هو - الحقيقة انى كذبتك خبر الكنز .

هى - ولم كذبتنى ؟

هو - لأعجبك .

هى - تعجبنى .. وأنا أعلم أنه ضائع ؟

هو - الناس تعجب حتى بالثروة الضائعة وباصحابها
الذين أضاعوها .

هى - ولم أطلعتنى على الحقيقة ؟

هو - لأنى ذو ضمير .

هى - وأين هو هذا الضمير ؟

هو - فى ... ثم لأنى لا أحسن الكذب . أود أن أعجبك
كما أعجبنى أنا هذا النور .

هى - لكنك لست بنور . ثم أنت لا تعجبنى إلا إذا تركت
التطلع لرؤية النور ، ورعاية النجوم . أنا أريدك وقحا قليل
الحياه ، صفيقا تطلع فى جسدنى بنظراتك الملتهبة ، حتى تحمر
وجنتاى غيظا منك ، وخجلا من نفسي . أرعنى أنا .

- هو - لا . و . . . وإذا . . . أضعتك ساعته أنا بدوري .
- هي - ولو . . . ليس لي أهل فلا تخش مطالبة .
- هو - تطالبني بك نفسي .
- هي - أجددها .
- هو - إلا إذا وعدتني بأن لا تضيعيني .
- هي - أنا لا أستطيع أن لا أضيع . . . (يعودان الى الصمت) (بعد لحظة) مالك صامت ؟ حدثني املا نفسي بفراغ
ثرتك . . .
- هو - (لنفسه) هي ككل من عرفتهن . . (لها) وما
الغاية ؟
- هي - وهل ثمة غاية ؟ إن الغاية عندنا هي الوسطة .
- هو - الغاية هي الوسطة ؟ هل نعمل شيئا لا لشيء ؟
- هي - للعمل ذاته . كان كل من الجنسين يحب الآخر لبقاء
الجنسين . الا ترى الآن أننا نتحابب للحب ؟ كمن يأكل للشفة
المضغ والبلع ؟ هكذا الانسان الراقى يعمل لنشوة العمل .
- هو - هذا واقع كان يجب أن لا يقع .
- هي - نحن لا نبحث عما يجب . وإنما نتبع سنن البشر .
- هو - أنا لا أحب ذلك .
- هي - أرايت انك انت الذي لا يود أن أعجب به وأكبره .
- هو - ماتريدين أن أصنع لك ؟
- هي - اسرق . اسرق من أجل شيئا ؟ اسرق لي سوارا
أزين به معصمي ورسعه بأحجارك الثمينة .
- هو - لا .
- هي - ولم ؟
- هو - أولا لأنني لا أملك من الأحجار إلا كذبي . ثانيا لأنك
تنسين .



هي - أنا ...

هو - ألم تذكرى أنك لا تملكين مكانا يحفظ لك أشياءك ؟

هي - ولو • اسرق لى ، وسأحتفظ بسوارك ما استطعت •

هو - أنا لا أسرق •

هي - حتى لمشاركتى فى جرم ؟ حتى لمشاركتى فى اقتراف

ذنب مشترك بيننا • أنت لا تحبى •

هو - أنا لا أود أن أسرق • وأخشى أن أصبح مدمنًا على

السرقة •

هي - ولو ...

هو - وبحكم الادمان اسرقك أنت بدورك •

هي - اسرقنى ، أوه اسرقنى الآن إن شئت • نحن لا

نطلب أكثر من ذلك •

هو - ؟!!؟

هي - ألا تعلم ان وراء ذلك الشهرة ؟

هو - لا أود ذلك سرقة إنما • ما ألطف جسمك ... ألا

تغيريننى إياه ساعة ، أو أقل من ساعة ؟

هي - (فى حدة أقل من ساعة) ، هوه • (تلطمه لطمة)

خذ • يا وقع ! يا قليل الحياء ! ألا تخجل من أن تفتح مثلى

بمثل هذا ؟ •

هو - إننى لم أقل شيئًا إذا ... (يضع يده على مكان

الصفعة) •

هي - أعيرك نفسى يا وقع ! يا وحش ! ، نحن نهب

أجسامنا هبة (لمن) يمتلكها غصبا ورضى • ولا نغيرها ، هذه

الخطيئة الكبرى ، هذا الذنب الذى لا يغفر • نحن لا نسلم

أجسامنا إلا هبة ، أو تسليما لمفتصب ، ذلك ما أمرتنى به

أُمى ، أنا امرأة شريفة •

هو - وما الشرف ؟
 هي - الشرف هو أن تعمل أعمالا شريفة .
 هو - وما هي الأعمال الشريفة ؟
 هي - الأعمال التي تواطئ الناس على تسميتها بذلك ...
 (بعد لحظة) أنت تعيش بماذا ؟
 هو - بالقوت والماء مما يجري تحت الأرض وينبت فوقها .

هي - وهل الأرض لك ؟
 هو - الأرض .. لكل .
 هي - لا . الأرض لأصحاب الأوراق
 هو - ما دخل الأوراق في الأرض ؟
 هي - الأوراق .. هي التي تخول حاملها ملكية الأرض .
 هو - الأوراق لا تؤكل .
 هي - لكنها تعيننا على أكل الطيبات .
 هو - من أين تأتيهم الأوراق ؟
 هي - يسرقونها ... بعضهم من بعض .
 هو - ولم يسرقونها ؟ لم لا يفتكونها علانية ؟
 هي - يالك من وحش ! ألا تعلم أن المدني لا يفتصب ولا يفتك ! من يرضى بذلك ؟
 هو - الجائع .
 هي - قل : عاجز ، قل ... لأن كلمة جائع حذفت من قواميس المدنية .

هو - أنا عاجز لأنني آنف من ارتباك السرقة ؟
 هي - أنت أقل من عاجز - أنت وحشي : ألا تعلم أن في السرقة مجاملة ومجبرة للمسروق ؟ وفي الاغتصاب قهرا

للمفتصب وذلة للمفتصب ؟ وأنت مخير بين عز السرقة ،
وذل السؤال ، ووحشية الاعتصاب !

هو - صكينة ١٠٠

هي - أنا ؟

هو - لا ٠٠٠ أمك التي علمتك هذا ؟

هي - وأنت ما علمتك النجوم ؟

هو - أسماها .

هي - وهل تأتلك إذا ناديتها أو حتى تجيبك جوابا ؟

هو - اسميها للمعرفة لا غير . .

هي - ما هي المعرفة ؟

هو - السمو .

هي - أليس هو الغرور والأناية ؟

هو - لكن لولا الغرور لاحتقر الانسان نفسه .

هي - أنت تحتقر الكذب على الناس . ولكنك تكذب

نفسك بنفسك ، ولا ترى في ذلك بأسا .

هو - لي لغة أخرى في المعرفة هي الحديث عنها مع الناس .

هي - وهل تربح من هذا ؟ هل يعطونك شيئا مقابل

حديثك عن معرفتك ؟

هو - أنا لست بتاجر . هذا ما لا أفعله مطلقا ؛ لأن

المعرفة لا تنقص .

هي - بالعكس كل شيء يزداد إلا المعرفة . هل زيد شيء

فيها عما عمله الانسان الاول . ألا ترى أنك تأنف من سرقة

الناس ولكنك تسرق نفسك ؟

هو - ولو ٠٠ نفسي لي أنا .

هى - هَذَا غُلَطْ آخِر • نَفْسُكَ لِفَيْرِكَ • لِي أَنَا مِثْلًا مَا دَمْتُ
بِجَانِبِكَ •

هو - حَسَن • هَا أَنَا أَصْبَحْتُ لَهَا الْآنَ !
هى - هَذَا بَدِيهِي إِذْ أَنْكَ لَا تَمْلِكُ مِنْ نَفْسِكَ شَيْئًا • أَنْتِ
لَا تَرَى نَفْسَكَ حَتَّى مَجْرَدِ الرُّوْيَةِ • وَأَنَا أَرَاكَ فَأَنْتِ لِي وَإِذَا
رَأَيْتَنِي فَأَنَا لَكَ •

هو - لَكِنِّي أَسْمَعُ نَفْسِي •
هى - لَا تَكْذِبْ ، وَأَنْتِ تَدْعِي أَنْكَ لَا تَحِبُّ الْكَذْبَ • أَنْتِ
تَسْمَعُ نَفْسَكَ ؟

هو - (هَازِنًا) حَتَّى وَلَا صَوْتَ ضَمِيرِي ؟
هى - ضَمِيرِكَ يَعِيدُ مَا سَمِعَهُ مِمَّنْ وَضَعَ فِي نَفْسِكَ هَذَا
الضَّمِيرَ • هَذَا مَا قَالَهُ لِي أَبِي •

هو - وَهَلْ عَلِمْتَ أَبُوكَ أَيْضًا ؟
هى - عَلِمْنِي •
هو - مَاذَا ؟
هى - الْحِسَابُ مِثْلًا •
هو - لَتَحْسَبِي بِهِ مَاذَا ؟
هى - كُلُّ شَيْءٍ ••• الْإَيَّامُ مِثْلًا •
هو - وَمَا الْفَائِدَةُ مِنْ عَدِّ الْإَيَّامِ وَأَنْتِ كَلِمًا سَأَلْتِ حَتَّى عَنْ
أَيَّامِكَ لَا تَقُولِينَ الْحَقِيقَةَ ؟

هى - جَمِيلٌ مِنْكَ هَذَا • هَلْ أَنْتِ أَصْبَحْتَ تَحْسِنُ الْوُخْزَ
بِدُونِ إِبْر • الْحَقِيقَةُ ؟ وَهَلْ ثَمَّةُ حَقِيقَةٍ فِي الْعَالَمِ ؟

هو - لَا • الْحَقِيقَةُ هِيَ الْكَذْبُ الْاِثْنَى تَوَاطَأَ النَّاسُ عَلَيْهِ •
هى - إِلَّا الرِّيَاضِيَّاتُ عَلَى مَا يُقَالُ ••••
هو - إِذَا لَمْ تَأْتِ قَوَاعِدُ حَدِيثَةٍ تَغْيِرُهَا •

هي - هل الأرض تدور حول الشمس أو العكس ؟
هو - لم تجدى إلا هذا ؟ حقيقة ان جهلك علمنى أشياء كثيرة .

هي - ليس أقبح من العلم الزائف .
هو - إنى أرى نجوما فى عينيك .
هي - ارعها إذن .

هو - ونجوما فى فمك .

هي - هي لك .
هو - انسى ما حفظته من والديك .

هي - أنت أمى وأبى الآن . وأنت انس النجوم .

هو - لولا النجوم ما وجدتك .

هي - وأنا أغار منها ، أريدك لى .

هو - وهل أنا لغيرك ؟

هي - أصحيح ؟ (فى فرح) وماذا ستفعله من أجلى .

هو - سأترك الكلام .

هي - قبلنى .. زد ضمنى بين ذراعيك . آلمنى ألما شديدا .

هو - وكيف ؟ وأنا أحبك ؟

هي - لو كنت تحبني لفعلت .

هو - أتجدين لذة فى تأليمى إياك ؟

هي - ألم تعدنى بترك الكلام ؟ .. إنى أكرهك وأكره كل ما هو لك . وأود تحطيمه تحطيماً حتى جسمى بعد ما وهبتك إياك ، أنا أكرهك وأكره فيك نفسى ؛ لأنى .. لأنى .. أعبدك .. لأنى ...

هو - امرأة •
هي - اسكت • وقبلنى •

(ينزل الستار وهما متعانقان في قبلة طويلة جملتهما يرتعشان - من عرائنها - وهكذا عاشت البشرية بين تعاليم الأم وفلسفة الأب ولا تعطى المرأة قبيلتها للرجل إلا إذا وعدّها بتملكه إياها في عبوديته لها • ولا ترضى إلا إذا وعدّها بأن لا يقول لها شعرا) •

أهلوم حدى (*)

بالله واش زهاك قولى يا شمعته
رانى عانسقيك اعطىي جبر
نظنر بيك هبال وكفاخ وطمعه
وزهييتى فى غير محلو عيب وعار

عرفت « حدى » لأول مرة فى مدينة نقطة سنة 1937 .
وقدمنى إليها صديقى الأستاذ م . خريف (I) . وكنا كلنا فى
ضيافتها . فرأيته تتردى ملابس الرجال وتتعمم بالشاش
الصحراوى . وبالرغم من أننى لم أتمكن من تقدير عمرها
بالضبط ، فهى بلا شك قد تخطت العقد الرابع . وكانت
بيضاء اللون لطيفة الأطراف والحركات . وكانت لا تزال فيها

(*) حدى : شاعرة من أشهر شعراء الجنوب . وغينا الى صديقنا صاحب الامضاء
أن يترجم لنا بعض أشعارها من لهجتها العامية الى العربية فبعت الينا
بترجمة أغنية الشنعة (ملاحظة الجريدة) .

(1) المرحوم مصطفى خريف



- رغم البياض الذى ذهب بلون عينيها - جاذبية لا أدرى ما هى ، وما سلمنا عليها حتى أخذت تحدثنا بصوت قد تصنعت له لهجة الرجال حتى أصبحت تحاكيهم بدون ما كلفة . وما كدنا ندخن « السبسى » الثالث حتى طلب منها الصديق خريف أن تنشدا أغنية « الشعمة » فتبسمت كمن يبتسم لحاطرة أو ذكرى ، وكأننا قد عادت الأغنية لذاكرتها بما حولها من أيام شبابها ورفقاء سفرها حين كانت صبية كاعبا تشق الصحراء بين « تاله » و « القمار » و « وادى ريخ » و « نفطه » وكانت كما وصفها فى إذاعة له الأستاذ خريف تجيد ركوب الحيل والمهارى ، وتحذق الصيد وهى تقول عن نفسها :

(راحى حدى عايقه) وأشعلت « سبسيا » بدورها . ثم أخذت تنشدا أغنيتهما - لا بصوت المترجلة الذى كانت تحدثنا به بل بصوت المرأة الذى كانت تنشدا به أغانيها قبل أن ترتدى ملابس الرجال . وهى لم تترجل فى زيها تظاهرا أو شغفا بالرجولة ، وهى الأنثى المعتزة بأنوثتها . بل فعلت ذلك لتتمكن من حياة حرة لا يمكن أن تحياها وهى فى بخنوق وحلية .

..... وكان منها إنشاد ومنا إنصات . وحضرنا أحلام حدى بلسانها تحدثنا عنها فتقول فى رقة وترتيل :

- الأغنية -

« كنا نسير فى الصحراء الواسعة وقد قرب الغروب وأعيانا السير وأتعب جمالنا وذهبت حرارة ريح القبل بما فى أجسامنا من ماء ورطوبة ، فأنخنا رواحلنا . وذهب كل منا يؤدى واجبه نحو رفاقه يهيم ما عليه أن يهيئه ، فهذا يجمع الحشيش اليابس ، وآخر قد اتجه نحو البشر . وكنت أنا أهيم العجين والفلفل للشواء . وما فينا إلا فرح بهذه الراحة بعد أن أجهدنا أنفسنا فى السير فى الرمال الى حد الملل . وكان يظلمنا عن

الرياح الحارة عرق من رمل مرتفع • ولم نلبث أن اشتد علينا
الظلام ولم يبق من النور إلا بصيص النار تحت القدر • وبالرغم
من ثقل الليل ، فقد كنت فرحة به لأنه انتقم لنا من عدوتنا
الشمس وغربها كالطرودة •

« أنا أحب الصحراء كما أحب أمي ولكنني أسأفها أحيانا •
وأى إنسان لا يمكنه أن يسأم كل هذه الرمال السخينة التي
تدخل في كل ما فيك حتى تسد عنك النفس وتخالط حتى
طعامك وشرابك • وكم كنت أود ساعتئذ لو كانت هذه
الرمال على شاطئ » « رادس » شفة للبحر والماء •

« وبعد العشاء أخذنا في طهي التاي لغسل حلقوتنا من
الرمال العالقة بها • وشرعنا في تدخين التكروري والعرجار
ثم إذا أحد رفقاتنا قام الى رحله فأخرج منه شمعة وود أن
نشرب التاي على نورها • وكان القمر لا يطلع تلك الليلة إلا
قرب منتصف الليل •

« وما كان أحقر نور تلك الشمعة الصغيرة واقفة كأصبع
الجنى في هذا الوادي الواسع !

« على أن نور الشموع كان أحب الأنوار إلى لأن في رقصه
بين النور والظلمة رقص الإنسان بين الحياة والموت • ومع ذلك
فقد طالبت باطفاء الشمعة في تلك الليلة لا كرها لها بل ضنا
بنورها على هذه الصحراء المبهضة الى نفسى لكل ما عانيت من
المسير فيها عامة يومي • وسألتني رفيقتي : ما يبغض اليك
نورها فتحرميننا منها ؟ قلت : إنها في غير محلها إذ لا يليق
بهذه الرمال إلا الظلام ورائحة العرجار • قال : وأين تودين أن
تربها ؟ قلت : بل قل أي مكان يليق بها • فأعصتني رفيقتي
السؤال كما قلت نالهنى ربي الجواب فقلت : في قصر مرتفع
كالقصور التي يشيدها الصدهاء على شواطئ البحر •

- والصحراوي يحب الشاطئ، حب البحري للصحراء الدافئة -
 جدرانها من رخام ملون ، وأبوابه مصفحة بصفائح النحاس
 اللامع وفي أحسن غرفة بالقصر بأعلى طابق منه في سرير من
 خشب مزخرف بصور الطيور والأزهار منصوب بجانب النافذة
 المطلّة على البحر الصاخب شاب أسمر اللون أسود العينين
 مرتد ثياب النوم يدخل سيفارته، وهو يستمع الى هدير الأمواج
 ووقع خطى محبوبته وهي قادمة نحو الغرفة وهو يترقبها بكل
 ما في ترقب الحبيب من مراة وحلاوة . ويقول : ألا تأتين ؟
 فتجيب في دلال من تعلم انه كلما طال ترقبها زادت الرغبة
 فيها : اصبر قليلا فالطبيب ينتظر وهنا تأتي الفتاة وفي يدها
 شمعدان فضي فتضع فيه شمعتنا هذه وتشعلها لتنزع على نورها
 ملابس النهار وترتدى لبسة النوم وهي تحاول ان تخفي عن
 عيني زوجها بعض اعضائها حتى يراها في شوقه اليها أجمل
 مما لو كانت عارية . وكلما طلب منها ان تسرع تذكرت تلك
 الشقراء الجميلة شيئا وقامت نحوه تتثنى حتى تربه أن جسمها
 جميل في حركاته كما هو شهى لذيقه عند امتلاكه .

وهكذا بين الذهاب والاياب والتثنى تصل الأنثى الى ما
 تتطلبه الا وهو حدة الرجل وشدة توقه . فيصرخ بها على
 توقيع أمواج البحر : سأنزل من سريرى وأعلمك كيف يجب
 أن تلبى ندائى . فتبتسم له راضية وتلتحق به مطمئنة . وما
 تكاد تسكت صراخه بقبله حتى يتنفس البحر بنسيم
 (الشرقى) فتتلفى الشعة وتموت عند موضع اقدامها
 ولا يبقى الا البحر والحب ...)

* * *

هذه قصة الشمعة التى أنشدتها (حدى) فى تلك الليلة .
 وهى ككل أشعار (حدى) فى لغتها وقالها الأصل أجمل بكثير
 منها مترجمة . اذ أن فى الأشعار نفسا دقيقا من روح الشاعر
 لا يمكن أن يترجم الى لغة غيرها .

المركز النبر

- 1 -

كان صاحب البرنس الرمادى جالسا أمام منضدة عليها كأس القهوة وأقلام وأوراق . وكان صاحب البرنس الرمادى مدير جريدة أسبوعية انتقادية فكاهية . وكنت ممن كانوا يشاركونه فى تحريرها . وكنا نحررها ونصورها على مشرب هذه القهوة . فما رأيته حتى أقبلت نحوه . وكنت أبحث عنه لأمر يخص طبع الجريدة . جلست قبالة . وسألنى :

- هل صفقت الصفحة الثالثة . هل صفقت « أم المقائل » ؟
وكان يعنى بـ « أم المقائل » المقالة الأسبوعية التى كنا نخصصها لنقد أهل الفن وبالأخص المطربة مفيدة . وكان يتشدد فى نقدها . ويقسو حتى يجره النقد أحيانا للشتم المر .

قلت :

- « صاحب المطبعة يقسم بطلاقه أنه لا يضع حرفا على رخامته ما لم يستلم أجر الطبع سلفا . أين الحوالة التى استلمتها المارحة ؟ »

قال :

- اسكت ٠٠٠٠ دفعت كمباله التارزى ، واشتريت
بالبقية كبشا .

* * *

كان الرجل عجوزا صغيرا أعنى أنه تجاوز الخمسين ،
ابيض شعره . وما زال يحتفظ بقليل من نشاطه . وكان
جالسا بجانبنا ، ويستمع الى حديثنا ، وعلى فمه ابتسامة ،
ترقرقت على شفثيه الكالحتين ، كما تترقرق الدمعة فى العين
المهمومة . ثم استحال الابتسامة الى زفرة . أعقبها نائحا :

- الكبش !!!

التفت صاحب البرنس الرمادى الى العجوز . وسأله مازحا .
فى لهجة الجاد :

- الكبش !!! أتدرى ماذا أعنى به ؟ هو تلك البهيمة التى
تحمل قرنين ، وتجر خلفها شيئا كحجر السراويل ، تلك التى
نضحى بها فى هذا العيد المقبل .

- ويلعب بها صبياننا . أه ! الكبش .

* * *

كنت أظن أنه يأسف أن لم يبق طفلا ليلهو بالحرفان كما كان
يفعل ، وهو صبي . وكان صاحب البرنس وجد ما يسلو به
عن التفكير فى أجر طبع الجريدة . وكان العجوز يبكى ويبكى
بكاء المسكين الذى لا يملك شيئا . حتى أنه كان يبكى بأعين
ناشفة . ولكنه كان يبكى بكل وجهه ، ويديه المرتعشتين .
وسأله صاحب البرنس الرمادى فى فضول الصحافى :

- عم تأسف ، يا عماء ؟

- كنت أود أن أكون أنا خروفا . أنا نفسى

- وما يمنحك من ذلك ؟ لعلك فقدت زوجتك !

أجاب ، وهو يتغافل عن تنكيت صديقى الذى لا يحترم

شينا فى سبيل تفكيته :

- نعم فقدتها • ولكنها - رحمها الله - تركت لى طفلين
وبنتا • راضية الصغيرة • لها خمس سنوات •
هنا أسكت صديقى • وأفهمته برفسة من رجلى : أن الرجل
جاد فى شكواه ، وأنه مهموم البال ، وبرفسة أخرى ، أفهمته :
أن فى هم العجوز رائحة الحرفان فليستدرجه الى الحديث
وكان العجوز انتبه الى ما كان يدور بين ساقينا من رفسات
انتهازية واستفهامية ، فتدفق علينا تدفق « مجردة » فى موسم
فيضانه :

- نسين فى غرفة فى بيت لنا فيه أربعة أجوار • ولكل
من أجوارى أطفال فى مثل سن صفارى ، اشتروا خرفانا تلهو
بها صبيبتهم إلا أنا • • • عفا إنى أقص عليكما ما لا يهمكما •
وإنما لتعلمنا أنى كنت أحب الناس للمزاح بدرجاته من تحت
الصفر الى 40 فى الظل • ولكنى نسيت المزاح وأنسانيه
شقائى • عندما أرجع الى بيتى • وأجد أكبادى كل منهم قد
انتحى ركنا ، كتيبنا ، واجما لا يبكى حتى ولا يطالبنى بالحروف
كان الصغار فهموا من سنتين أن لا فائدة من مضايقتى بطلب
ما لا أستطيعه • حقا إنى لأتمس حالا من خرفان الضحايا •

انسانا حديث العجوز أمر طبع الجريدة •

بقيت أنا غارقا فى ذكريات الطفولة عندما كنت ألح فى
طلب خروف العيد من أمى المسكينة • ليسامحننا الله (أنا
والحرفان) ؛ فلقد كنا نكلفها كثيرا • أما صاحب البرنس
الرمادى ، وكان عمليا أكثر منى ، فانه اخذ يجول بنظراته
حولنا كأنه يفتش عن خروف ضائع ، خروف يجيد القفز
والنطح ليقدمه لصبية هذا المسكين يلهون به ويكونه يوم
العيد قبل أكله •

التفت صديقي نحو العجوز ، وقال فى لهجته الجادة دائما :

- ابشر ٠٠٠ هل لك حبل ؟

- لشنقى ؟

- لا ٠٠٠ لجر الحروف .

- وأين الحروف ؟ لو وجدته حملته على عنقى . أين

الحروف ؟

قالها فى لهجة بين اليأس والعتاب عن هذا المزاح المؤلم ، فى
مثل هذا الموقف .

- سأعطيك ورقة .

- : ذات ٠٠٠٠ كم ؟

- لا ٠٠٠ ورقة زيارة. تقدمها لمن سأخط عنوانها (أريد

صرفك الى غادة ٠٠٠٠) على ظهرها (الورقة طبعا) وأنا واثق

مائة فى المائة (وهو لا يثق دائما الا بمثل هذا العدد الكامل)

أنك سوف لا ترجع خائبا .

وفعلما ، اخذ قلما ، وخط على بطاقته عنوانا . عنوان من ؟

عنوان مفيدة . عدوته اللدودة مائة فى المائة على حسب تقديره

هو ، والتي يخصص عمودا لשתمها اسبوعيا . تلك التي

اشتهرت بقلبها الرخامى وبقساوة لا تضاهيها فيها امرأة ؟ !

مفيدة القينة !!

قلت مرتابا :

- أظن ٠٠٠ سوف تسخر من بطاقتك ومن العجوز ؟

سخريتها بكل شيء .

قائ :

- ألم أقل إنى واثق ٠٠٠ فى ضمن كل ما أعلمه عنها .

أعلم أنها امرأة .

قلت :

- انى واثق مائة فى المائة كالعادة لكن ... هى ...
وأنا أنظر وجه العجوز المبتسم ابتسامة الشاك فى حديث
صاحبى ، والشاك فى ٠٠٠٠ العنوان المكتوب على البطاقة .
ولكنه بعد أن قلبها مرات ، قام بعد أن قال لصديقى ما يقال
عادة للشكر . وقام متجها نحو مسكن القينة يقدم رجلا
ويؤخر أخرى . وكنت لما أعلمه عنها ، وعن أخلاقها فى مثل
شكه .
حكى العجوز . قال :

- كانت الساعة الثالثة عندما ضغط اصبعى على الزر
المنبه ، وفتح الباب الحديدى حارث مضربى . فقدمت له
البطاقة . غاب قليلا ، ورجع تصحبه صاحبة البيت . كانت
مشوشة الشعر ، مورمة العينين من تأثير النوم . وكأنها
صحت على حس الزر الكهربائى . كانت ترتدى فستانا حريريا
عليه رسوم أطياف وأزهار لم أر مثله . سألتنى عما أريد .
فأجبتها بالكلمة الواحدة التى تملا قلبى وفى « .. أريد
خروفا .. » ظهرت عليها علائم الدهشة . وكأنها استغربت
أن يطلب خروف من قينة . وبين التخت والمسلخ ما بينهما من
بعد . ولكنها طلبت منى أن اتبعها . تبعتها الى صالون فخيم
مشوش وضع الاثاث كشعرها ، ثمين الرياش كفستانها .
جلست على مقعد واتكأت هى على حرف طاولة . وأخذت تسألنى
قصتى . وقصصت عليها خبرى ، وخبر الصبية ، وخبركما .
وكانت تنظر الى الأرض ؛ فما رفعت رأسها حتى تبينت من
خلال دموعى ، أنها تبكى بكاء هادئا مثلى ، وقالت :

- آه . ليت من يطالبنى بملاعبة خروف ... هيا ننزل
الى الحديقة .

نزلنا الى حوش خلف الكرمة به أشجار وفيه خراف قائمة ،
وأخرى رابضة فى جملتها ما ينوف على العشرة حول أعشاب



خضر ، وسطل ماء . ودخلت بينها تجس ظهر هذا وتربت على رأس هذا ، وتدفع آخر برجلها .

- هو ذا ... الذى يصلح لأطفالك الصغار . سيفرحون كثيرا بقرونه الطويلة الملتوية ، وسيباهون به صبيان الحارة .
تقول هذا ، وهى تمسح بمنديلها دمعاً تساقط على خديها :

- أليس هذا رايك ، يا أبت ؟

- الراى ما ترتلين ، يا سيدتى .

- ألم تقل إن ابنتك الصغرى ... كيف سميتها لى ؟
راضية ... لها خمس سنوات . نعم هو ما قلته لى . لتأخذ
إذن هذا العليلش لراضية . سوف يسرها . ألا تجد أنه وديع
كبنيتك : هل هى كحلاء ؟

- نعم وجميلة كسيدتى ولو كانت لا يمكن ان
تضاهيك جمالا .

- هى أحسن منى الآن .
ثم كان خاطرة فأجأتها فسألتنى :
- اتسمح لى بمرافقتك الى بيتك ؟ إنى أريد أن أرى راضية
تقتبل (العليلش) ؟

- البيت بيتك والبنية ابنتك إن شرفت ...
لم تقب إلا دقائق قلائل . وعادت ملتحفة . واقبلت نحوى
سرعة :

- لقد أرسلت فى طلب عربية لتقلنا الى راضية . هى ذى
تذاكر المسلخ . هات حبلا ، يا سيده ... يا سيده !

• لا أنسى فرح مفيدة ، وهي ترى راضية تعانق الحمل بكلتا يديها الصغيرتين •

ولا أنسى فرح راضية بالحمل وهي تحتضنه تارة ، وتقبله أخرى •

ولا أنسى فرح الصبية اخوتها بالحروف ، وهم يزينون قرنيه بكل الرقائق من كل الالوان •
ولا أنسى فضلكما وفضلك أنت بالأخص ، يا بنى ؛ لأن الدال على الخير كفاعله •

أجاب صاحبي ، وقد خلع برنسه الرمادي :

- لا تشكرني على شيء • إنما الشكر لله الذي أبقي في قلب القينة ناحية بيضاء ناصعة ينيرها نور الحنان • وهو أبهى الأنوار وأكثرها تلالؤا •

أمن تذكر جيران بذي سلم ...

- 1 -

كانت أما ، ولكنها بقيت امرأة .

توفى زوجها وترك لها . . . طفلين في حضنها ، ودموعا في عيناها . فبكته طويلا ، وبعثت بطفليها الى كتاب الحى .

وكان المؤدب رجلا طيبا ، ولكنه قاس شديد ، وكان تقيا ، ولكنه بخيل . وكان يعلم عن هذه الأرملة ما يعلمه كل الجيران : أرملة في الخامسة والعشرين ، جميلة ، زاهية ، ولكنها عفيفة . وكان للمؤدب طفل ماتت أمه ساعة وضعه ، فخطب الأرملة وتزوجها . فأصبح لسيد المؤدب زوجة وللأرملة ثلاثة أولاد . وما تزوجت الأرملة بالمؤدب حتى أصبحت الزاهية الضاحكة العابثة ، في مثل ورع المؤدب ، ومثل تقاه : تؤدي الصلاة في أوقاتها ولا تكلم طارقا الا من خلف الباب . ولم يكن لمؤدبنا هذا إلا عيب واحد - أو على الأصح ضعف واحد - هو حبه لجميع المال جمعا لما . والمال قوام الأعمال ، ولا يقام عنده الدين إلا بالدنيا .

كانت عادتنا أن نحتفل بأسبوع المولد على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم . وكنا ننشد القصائد المولدية طيلة الأسبوع السابق ليوم المولد . وفي اليوم السابع منه - ليلة المولد - يأتى (مفرق) الأوقاف ليوزع على جميع صبيان الكتاتيب نصف ريال لكل صبي ، حبسا موقفا على أذكار المولد فى الكتاتيب . وكنا ننشد يومئذ أناشيد ، وأسماعنا مرهة تتوقع وقع خطى « المفرق » فما سمعنا خطى إلا ارتفعت أصواتنا فى سلمها الموسيقى بقدر ارتفاع خطى « المفرق » على سلم الكتاب . وكان الظن السائد بيننا أن « المفرق » لا ينقدنا انصاف رياتنا إلا إذا سمع دوكاننا وعراقنا وحجاراتنا من نصف طريقه الينا . ولم تكن تعلم بالضبط ما كان يأخذه المؤدب من الحبس . إلا أننا كنا نراه يتسلم شيئا من « المفرق » على البركة ، ولا يعمده إلا بعد قراءة الفاتحة ، وخروج « المفرق » :

فبينما من يقول بأن المبلغ مائة ريال فضة ؛ وبينما من يراها ريات معدودة . إلا أن الغالب على ظننا أن المبلغ ضئيل لانا كنا نرى المؤدب / على ما عرف به من الورع / لا يتركنا نخرج بانصاف رياتنا كاملة ؛ فالمادة التى سنهنا بيننا هى أنه كان يجرى علينا فى ذلك اليوم امتحانا شديدا ، وشديدا جدا . نظرا لانا كنا تركنا كل مراجعة طيلة سبعة أيام . ومن يجده يتلكا فى سرد الآيات المطلوبة اغرمه غرما ماليا يتسراوح بين ثلث الريال وسدسه . ولكنه لا يتشهد فى تقدير الغرم إلا على الأطفال الأثرياء . وكان أباؤنا لا يرون فى ذلك إلا دليلا على شدة اعتناء المؤدب بتعليمنا ، أما نحن

وكان بيننا طفل يسمى إبراهيم . وكان ذكيا ، فقيرا يحفظ كل ما يكتبه فى لوحه . ولكنه اذا جلس امام سيدى



المؤدب أصابته الغباوة • ولعل خوفه من ربح العصا على أطرافه الصغيرة هو الذى يتركه يقافى • ولا تخرج حنجرتة حرفا واضحا • وكان المؤدب يعلم منه هذا • فكان يكلف عادة باستعراضه محفوظات معينة • وهو تلميذ فى القسم الثالث • لكن فى يوم التفريق سأل المؤدب نفسه أن اقرا • فلم يقرأ إبراهيم • وكان عقابه / حسب التعريفة / ثلث ريال • ولم يبق فى يد المسكين سوى (جوز صوردى) لا تسمن ولا تصل عصيدا •

ورجع إبراهيم الى والده المسكين باكيا • ورجع أحمد ابن امرأة المؤدب الى أمه • وقص عليها ما جرى لإبراهيم المسكين فى حفلة التفريق • وكانت تعلم أن والد إبراهيم فى أشد الحاجة • وأنه بدون نصف ريال المفقود لا يحضر عصيدة صباح القند •

- 4 -

بعد أن سلمت من صلاة العصر خلف زوجها • وخرج هو الى مقهى الحى دخلت الى فراشها • وأخذت - وهى التى لم تسرق قط - تجس بيدها تحت الوسادة حيث يضع المؤدب كيسه • وفكرت فيما يجب اختلاسه من هذا الكيس لاغثة إبراهيم ووالده • وأخيرا • أخذت خمس ريالات - ثلاثة فرنكات فضية - وأرسلت ابنها أحمد فى طلب إبراهيم • وما حضر واختلت به حتى خرج الطفل يجرى نحو بيته باشا •

- 5 -

كانت العادة أن نفطر صباح المولد جميعا فى الكتاب من الصوانى التى يرسلها الينا أثرياء الحى من آباء تلاميذ وغيرهم من اهل البر والسعة • فترى الشقاتل • والقيروانيات كالبراكين الهائجة سائلة سمنا وعسلا وقشطة ورغيدا من

فستق ولبن ، وكان منا من يدخل وخادم يتبعه بصينية ، ومنا
يأتى بطبقه بنفسه .

وأقبل ابراهيم ذلك اليوم بطبق لم نر قط مثله بين
الاطباق .

- 6 -

..... وماتت امرأة المؤدب لعامين بعد زواجها ، وبكاها
المؤدب وبكىناها نحن الصبية .

- 7 -

ولو أنك ذهبت يوم المولد الى مقبرة « الفدان » لوجدت
رجلا يرتدى ملابس أنيقة ، ويحلى صدره بسلسلة ذهب ،
جالسا فى خشوع عند قبر حجرى ، وفى يده « بردة المديح »
ينشدها بنفس النغمة التى كنا ننشدها بها ونحن صبية
وبين الآونة والأخرى تنحدر دمعة من عينيه

القبر قبر « سارقة الريالات الخمسة » رحمها الله وغفر لها .
والرجل الذى لا يزال يبكيها منذ ثلاثين مولدا هو
إبراهيم .

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

www.jadidpdf.com

مجرم رغم انه

- 1 -

كانت الساعة الخامسة صباحا . وكان جو المحطة غائما
بسحب كثيفة من دخان القاطرات ، تنيره مصابيح ضئيلة .
وكان قاسم أمام درجات إحدى الحافلات ينظر الى ساعة المحطة .
فخاطب نفسه قائلا :

« ما تزال ساعة كاملة لموعد قيام القطار . ما أطول الساعات
الآخيرة ! »

جلس قاسم على مقعد في مؤخر الحافلة . ووضع قفطه بين
ركبتيه . وأخذ في لف سيفارة بيدين ترتعشان . وأنست
عيناه بظلام الحافلة . وأبصر قبائله شيخا بدينا جالسا ملتفا
في برنس أبيض نقي ، يعتم بعمه . وكان الشيخ كتمثال
الشمع لا يبدي حراكا . ولا يابه لحركات المسافرين . فابتدأه
قاسم بالتحية :

- صباح الخير يا أبى الشيخ .

ولم يرد الشيخ التحية لا بأحسن منها ، ولا بمنزلها . وأسر
قاسم في نفسه : « هذا عجوز قليل أدب . لكنى مجبور على

مرافقته ما دامت الحافلة خالية الا منا الاثنين .

اشعل قاسم عود وقيد لإيقاد سيفارته . ورأى على بصيص نورها وجه الشيخ . وكان وجهها وديما حقا يوحى الثقة بصاحبه ، وقورا بذقنه الأبيض ، وعينية اللامعتين . ورأى الشيخ بدوره قاسما وابتسم له .

كان قاسم في الثلاثين من عمره ، طويل القامة ، قمحي اللون ، جذاب الملامح ، رغم كآبة تعلو وجهه ، وذقن لم يحلق من أيام ، يرتدى بدلة زرقاء قديمة ممزقة الاطراف ، عليها من الرقع ما على الخرائط الجغرافية من ألوان .

شجعت ابتسامة الشيخ قاسما لاعادة فتح الحديث مع رفيقه المعجوز ، لا تقتل الوقت والطريق ، بل لأنه كان في حاجة الى بث شكوى كتبها مدة طويلة . واخذ في إلقاء حديثه دفعه واحدة ، وبلا مقدمة كما يطرح الحمال حمولته ثم ينفض كتفيه من غبارها . قال قاسم :

— اوه يا أبى الكبير لا يدري الحياة من لم يبطل الحياة ما أقساها . . . وما أمر طمعها ! لقد حملت من أعباؤها ما تنوء بحمله الجبال الرواسي . لقد ظلمت ، ومثيت بطل ، روعت منها طول حياتي حتى تركتني أنهنش قلبي ، وضميري ، كما يفعل الثعلب عندما ينهش رجله بنابه ليتركها للنفخ وينجو بالباقي . لقد زلت بي قدمي الخوة الأجرام وأنا برى . . . آه . . .

وكان قاسم يتكلم بصوت متهدج في لهجة من تعود أن لا يتكلم جهرا . وكانت سيفارته ترتعش بين شفثيه . واستأنف حديثه :

— لا تنكر على قولي إني مجرم وبرى . أنا هذا المزيج



الغريب . لقد قست علي الأقدار استغفر الله ، فلقد لاقيت كل شيء ضدّي مذ حملت بي أمي . مات والدي قبل أن أرى الحياة ، وماتت أمي ، وأنا صبي . وكفّلتني أخ أحق بخيل . فكر ، وأنا في السادسة ، أن يقصيني من تاله ، مسقط رأسي ليستأثر بالارث دوني ، فأرسلني إلى العاصمة عند ابن خالة لنا بدعوى طلب العلم كأنه لا يوجد بتالة مدرسة لتعليم صبي في السادسة من عمره ومن هنا بدأت سلسلة مصائبني .

« كان عمر الوزري ابن خالتي رجلا طيبا ثريا لا أذكره إلا بخير . قبلني بين أولاده كواحد منهم ، وسهر على تعليمي وتربيتي كالأب الرحيم . آه يا أبتني ! ما أشقاني . لقد كنت أحس رغم حنان قريبتي بنوع من الحنان ينقصني ويترك فراغا في قلبي وجدته .

« أراك تصفى إلى حديثي ، ولكنك في قرار نفسك تهزأ من فتى يشكو الحياة ، ولم ير منها إلا سنين معدودة . ولكنني تأملت ، وعانيت في هذه السنين القليلة الشيء الكثير . إنني أصرخ الآن أمامك ، وأمام العالم ، والعدالة ، والقضاء بأنني مظلوم ، ولم أفعل ما يوجب تحمل ما تحمّله . لقد كنت سجيناً أجز قيد الحديد ولم أطلق إلا أمس . . أتدري ، يا أبي ، لماذا سجننت ؟ لأنني دافعت عن شرف فتاة أحبها . أراك لا تحير جواباً ، ولا تبدي حراكاً . معك الحق : فاني ابتدأت حديثي بخواتمه ، وساقص عليك الآن أولاً فأولاً :

- 2 -

« كنت في بيت عمير قريبى مكرماً ، مدلاً ، كأنى بين أبوى وإخوتى . وكانت بين بنات عمر فتاة في مثل سنى جميلة ، ذكية ، علقت بها ، وعلقت بي ، ونحن صبية وأنستني بعطفها ، وحنانها ذل اليتيم . وميلات فراغ قلبي . تحاببنا السنين الطوال حبا نقيا ، طاهراً من كل الادران حتى أصبحنا لا نفترق إلا في ساعات الدراسة . نعم ، يا أبي ، إن هذا الشقى الذى

تراه كان تلميذا نبيا في مدرسة ثانوية . وكانت هي ايضا
تتبع دروس التطريز والتزويق في « ليسى » للبنات . وكنت
أصحبها في ذهابها وإيابها من المدرسة .

« وكان في طريقنا الى مدرستينا دكان عطار لا تمر
الفتاة امامه الا غازلها ببذء المغازلة التي اختص بها الرعاع
والسوقة . وكنت اكظم غيظي ، وغيرتي ، وأمر. أمام دكانه
مرور الاصم . وهذا ما شجع العطار الوقح على التماذى .
وهذا ما ملأ كاسي حتى فاضت .

« فاضت ذات يوم ، ولم أتمالك نفسي من الدخول الى
دكانه ، ولم أشعر إلا والسكين الذي يستعمله في تجارته في
يدى اليمنى . وصرخ العطار ، وفتح دولابا ليخرج سلاحا ،
وسبق السكين ، فدخل قليلا في ذراعه . وصرخ العطار ،
وفزع غوغاء الشارع ، والتفوا حولنا . وكنت في مثل نوبة
المحموم ، لم انتبه منها إلا أمام القضاء . واللعين يدعى انى
أصررت على قتله لسرقة ما فى صندوقه من مال ، وهو ثرى
وأنا فقير .

« وشهد العمون الذى ساقنا أنه رأى السكين يلعب فى يدي ،
ونية القتل تلمع فى عيني . ورأى الدولاب مفتوحا ، وجرحا
فى ذراع العطار مفتوحا .

« أما أنا ، يا أبتاه ، فلقد كنت كالمصروع أفاني ، ولا أقول
شيئا . ولم تحل عقدة لسانى ، إلا وأنا فى سجن ضيق .
بكيت ، انتحبت ، وصرخت الى رفقاء السجن : إني برى !
وهزأوا منى

« كانت كل القرائن ضدى وحكم على بالسجن خمس
سنوات مع الضغل الشاق . وعملت فى « صواف » ! أنا .
أنا الذى لم أترك المدرسة إلا للسجن . . . فهل الذنب ذنبى إن
كنت خلقت لأحب تلك الفتاة ؟ وهل الذنب ذنبى إن كانت

دمائي لا تحتمل سماع مفاذلات العطار ؟ وهل الذنب ذنبى إن كان سكينه حادا يدخل فى لحم البشر كما يدخل فى الصابون والاجبان ، وبنفى السهولة ؟

« تركت السجن بعد مضى الخمس سنوات قضيتها بين المجرمين وسمعت من أقاصيصهم ما سمعت . فهل الذنب ذنبى إن كانت أبواب السجن لا تغلق إلا على المجرمين ؟

« لم أعد الى بيت قريبي ، وأنا أعلم أنه لا يقبل متهمًا بالقتل والسرقة كما كان يقبل التلميذ الفنى كنته قبلًا . وعلمت بأن الفتاة قد زوجت للعطار الوقع الثرى الذى لم يدخل السجن مثل ، وكان هذا جزائي منها

« لم يبق كثير بينى وبين الهوة التى تفصل بين عالمي الفضيلة والاجرام . أدمنت شرب الخمرة وقد قيل لى : إنها تعين على النسيان . فهل الذنب ذنبى إن كانت الخمرة لا تعين إلا على الكسل ؟ وعدت الى السجن والعمل فى حقول « جفار » وملاحة « حلق الوادى » ، وعدت الى تأثيرات أوساط الاجرام .

هنا فى سماء المحطة زفير بخار القاطرة مؤذنا بقرب تحركها .. وبددت أشعة الشمس الذهبية زرقة الفجر القاتمة . ولم يتحرك الشيخ من حديث الصعلوك ولا من زفير القاطرة الذى يسم الأذان .

واتسعت حدقتا الصعلوك ، ودخله شك فى أمر مستمعه . ووقف الصعلوك . ومسك كتف الشيخ متسائلا :

« يا أبى ! يا أبى ! أسمعت قصتى ؟ »
أجاب العجوز :

« أبو ؟ أبه عبا أبو »

وارتمى قاسم على مقعده مغمض الأجفان ، وهو يقول :

« آه حتى هذا ! لقد كنت أشكو بلواى الى أصم أبكم ! » .
وتحركت دواليب القطار .

قتلت غالية ١٠٠٠ !

- 1 -

جلس رجب على صندوق أمام المخزن ، وهو ينظر الى فرسه
« الأزرق » ويقول له :

- كل علفك ، يا صديقي ، إذ لم يبق لي صديق غيرك أنت
أحب الى منها .

أحب اليه منها ! لا . لقد كذب رجب . فغالية أحب اليه من
نفسه ولا يعيش إلا لها وبها وبحبها . ولولا الحب الذي ملك كل
حسه وملا كل قلبه لما ترك حقله في طبرية ، وترك العباب
الفروسية والغناء في الأعراس . لقد كان رجب أشهر فرسان
الشمال التونسي . ومن أجل حب غالية استقر رجب
بالعاصمة ، واستبدل سرج (الأزرق) بعربة نقل .

- نعم أنت أحب إلى منها ، تلك التي من أجلها تركنا حلبة
السباق ، ونزلنا الى جر العربة الثقيلة التي لم نخلق لها ،
يا أزرق . اليس من أجلها رضيت بتحمل قرعة العجلات خلفك ،
يا أزرق ؟

وكان (الأزرق) يهرز رأسه بين الآونة والأخرى ، ويحرك
فكيه كأنه يصادق على حديث مولاه ، وكأنه يأسف على الأيام

التي خلت والتي لم يكن يحمل فيها إلا السرج المطرز والنجم
الفضي . ثم يعود الى علفه ممثلا .
ويعود رجب الى محادثة فرسه :

- أين تلك التي كانت تخضب (سيبك) بالحناء يا أزرق ؟
لقد مرت أيام لم أرها فيها ، تلك التي لم تكن تصبر على فراقى
يوما واحدا . أما زلت تذكرها ، يا أزرق ، تلك التي كانت
تطعمك السكر بيدها اللطيفة ؟ أتذكر مولاتك غالية التي
هجرتنا ؟

وكان الفرس يشاطر مولاه لوعته فيصهل صهيل الألم بنفس
قصير ، ثم يعود الى المنود .
ويعود رجب الى التفكير في حب غالية ، وفي صد غالية ،
ويحس بمثل وخز الأبر في قلبه ، ويقول مخاطبا نفسه
وفرسه :
- لعلها علقت بغيرنا ، يا أزرق ؟ من هو ؟ آه الويل لمن
يتحدى رجب ويراحمه في حب غالية !

- 2 -

أما غالية ابنة عم رجب وخطيبته ، فهي جميلة ، جذابة ،
مزهوة ، مرحة ، مشغوفة بخطيبها الفارس الجميل شغفه بها .
ولم يبق لإقامة حفلة العرس إلا ختم (عام الحزن) على وفاة
والد رجب .

وكان رجب لا يقيم في البيت مع عائلته إلا أنه يذهب كل
يوم لرؤيتها ومرارا .

حدث أن غضب مع عائلته ، فلم يذهب الى البيت منذ ستة
أيام ، هي كست سنين عنده . وكان يتوقع في كل ساعة طيلة
هذه الأيام أن تأتي غالية لرؤيته ، أو تبعت أختها الصغرى
لتنسم أخباره . ولم تفعل ، ولم تسع لازالة الحلاف ليعود الى
البيت ويعود لها . فهل سلته ، ولم تعد تحفل بحضوره أو
غيابه ، أم علقت بغيره كما أوحى له الفيرة ؟



خرج رجب من المخزن ، وقصد غابة البلقيدير . وكانت عشية يوم راحة ويوم صحو في مثله يحج القوم الى غابة البلقيدير ، وتضييق بهم ماشيها نسوة ورجالا ، فتيانا وشييا ، اطفالا ورضعا يمرحون في حضان الطبيعة ليتنفسوا من نسيمها المجدد للحياة .

اتخذ رجب مكانا غير بعيد من الطرقات التي يمر بها الرائعون والغادون : فمن أم وبنيتها ، ومن زوج وزوجها ، ومن غادة هيفاء تتأبط ذراع خطيب أو حبيب ، ومن شيخ وشيخة يشتركان في جميل الذكريات ، إلا رجبا فلم يكن يصحبه إلا فؤاد مكلوم تحرقه نار الفيرة . فلم ير من الناس ومرحهم إلا ما يزيد في لوعته . فهم أزواج سعداء ، وهو الفرد المهجور .

وأقبل الغروب . وازدادت وحشة رجب فرجع الى المدينة يجر أقدامه جرا ، هائبا ، لا يدري أية جادة يتخذ . وقادته قدماه الى الحارة التي فيها البيت حيث تسكن الحبيبة . ووجد نفسه فجأة أمام الزقاق . . . وأظلمت الدنيا . . .

أوقف يفكر فيما يجب أن يصنع : أبطرق الباب ، ويطرح من كبريائه أمام عظمة الحب ؟ أم يتروقب ليلة سابعة لعل غالية ترسل من يستدعيه ؟

رأى شبحا ملتفا في برنس أبيض يخرج من البيت في حذر . من لا يود أن يرى .

هو هذا الحل ! فهذا المتسلل هو الذي احتل مكانه من قلب غالية . إنها سلته ، ولم تحفل بفيابه لأن قلبها في قبضة هذا الذي يخرج من لقائها خروج اللص . وفعلها فهو اللص الذي سرق لرجب أثمن ما كان يملكه في هذا البيت . لم يتمالك رجب من إخراج مسدسه ، وتصويبه في حركة آلية صوب لابس البرنس ، وأطلق عيارا على المعتدي الأثيم .

وسقط الشبح على الأرض . وود رجب أن يرى وجه هذا

الفرهم ، وهو يلفظ آخر أنفاسه •

ورأى ••• ويا لهول ما رأى ! ••• رأى ما جعله يسقط
بدوره كالمصعوق بجانب ضحيته وهو يصرخ :

– « أنت ••• أنت ••• غالية ••• ماذا صنعت بنا ؟
قتلتك بيدي لقد قتلت حبي بيدي ! ••• »

– أنت ••• أنت ••• ليسامحك الله !

– : لماذا تخرجين هكذا ؟ بهذا البرنس ؟

– : لأتقى أعين الرقباء • لم أطق صبرا على غيابك قد
طال •

– : رباه ! ماذا صنعت بك وبنفسي ؟

– : كنت آتية الى •••••

وأغمى عليها • ورأى الدم يسيل من نحرها على شالها
الأخضر وضحك رجب ضحكة رنانة ، ضحكة الجنون •

وماتت غالية بعد يومين • وذهبوا برجب الى مأوى
المجاذيب • رحمها الله •

موت العم « باخير »

- 1 -

كان فى الحارة التى ولدت فيها عجوز سقاء يسمى « العم باخير » . وكان رجلا خيرا ، طيب القلب ، ورعا ، لم نعر له على زلة قط . إلا أنه كان شاذا فى كل شىء . ولعل فى شذوذه ما يحبه الينا ، نحن صبية الحارة ، ويشير فينا استطلاعنا ، ويجعلنا نترصد حركاته كلها .

* * *

قلت : إن (عم باخير) يعمل كسقاء . وكان يدخل كل بيوت الحارة يشاهد بحرية كل نساء الحارة ، يزود واحدة بالماء . ويطلب من الواحدة أن تعيره مهراسها ، ومن ثالثة أن ترقع له ثوبه . وكن جميعهن يقتبلنه فرحات باسمات .

كان (عم باخير) خفيف الروح ، دميما دمامة عليها مسحة من جمال التناسب ، مما يجعل دمامته مقبولة . فالأنف البارز المكور تعلوه عينان حمراوان ، تحتها فم واسع ، له شفة سفلى متورمة متدلّية فى مستوى أفقى مع ذقنه . وعلى الجميع لون من ألوان الاشراف وطلاء من البشر . ومما يزيد فى خفة ظله أنه كان لا يملك صندوق ملابس بل كان يرتدى كل ما يشتريه .



فقرء مثلاً معتما بعمه بيضاء عليها مجرمة حمراء ، ثم يربط الجميع بخيط من وبر قاتم اللون . ويرتدى فى أوقات الراحة الجبة ، والبرنس ، والقشايية ، والبلوزة صيفا وشتاء .

* * *

كنا نراه طيلة يومه إما فى عمله بين السبالة والبيوت ، أو جالسا على عتبة المسجد يذكر الله سرا وجهرا . أما فى الليل . . .

كان (عم باخير) يسكن مخزنا وهبه له أحد أثرياء الحارة ليستغله فى مقابل اعتنائه بحمار يملكه صاحب المخزن . وكان حمارا « منبها » أعنى أنه لا ينهق إلا فى ساعة بعينها : ساعة الغروب . وما يكاد يسمع (عم باخير) نهيق رفيقه حتى يقفل راجعا الى المخزن ويوصلد بابه بكل المفاتيح والتاريس وتبتدى حياته الليلية

* * *

وبعد أن يزود بيوت الحارة بما يلزم من ماء يخصص لنفسه الثلاث قرب الأخيرة . . . قلت : لنفسه ، وسترى أى استعمال يستعملها (عم باخير) ؛ فهو يسكنها جميعا فى برميل كبير . وكنا نحن الصبية ، نتجسس على (عم باخير) تجسسا مشينا لو كنا نعلم أنه تجسس ، ولكننا كنا نراه نوعا من « الفرجة » البريئة تسلينا لا أكثر ولا أقل .

وكانت فى باب المخزن ثقب بعدد أعيننا الصغيرة . فكنا نراه يتعشى أولا ما يوجد به صاحب المخزن ، ثم يوقد شمعات عديدة حوله ، وقد تبلغ فى أيام يسره عشر شمعات وأكثر . . . ويضع الشموع الملتهبة حول البرميل على الأرض ، ثم يضع خشبة على فم البرميل الذى به الماء أفقيا ، ثم يجلس عليها واضعا رجليه فى الماء . ويضع حول عنقه مسبحة ذات مائة

حبة . وياخذ « قصبته » يربت عليها بكل حنان ، وينفضي ما
 قد علق بها من غبار ، ويضمها بكل تواضع وخشوع على شفتيه .
 ويضع أصابعه على ثقبها ، ثم يسمى باسم الله ويقول :
 « اللهم إني نويت عزف « الطرق » الأول لروح أمي وأبي
 رحمهما الله » .. وياخذ في عزف « الطرق » وتخرج أنفاسه
 وحلا الجو الفائح النير برائحة الشمع ونوره . ثم يستأنف
 عزفه لأرواح الأولياء والصالحين . وهكذا ..

* * *

كثيرا ما نهاء فقهاء الحومة ، وإمام المسجد عن التزمير ،
 وعن هذه الطريقة التي سننها ، والتي لا تقربه الى الله زلفى .
 وكان لا يحفل بنهيهم ويجيب :

— « أنا رجل عامي جاهل ، لم أستطع حفظ شيء . لقد
 دخلت الكتاب وخرجت . ولم أتعلم إلا محي الألواح ... وإن لم
 يقبل ربي مني عزفي ، فهو لا يضر بأحد ... غفر الله لي
 ولكم » .

.. ثم يقول ، وكأنه يخاطب نفسه :

— « ربما رفعتني الملائكة الأبرار الى البقيع يوم أموت ..
 على توقيع مائة « قصاب » أو أكثر ... »

ونجيب نحن الصبية :

— « ربما ... »

ويستعيز « الفقيه الورع » بالله من شقاوتنا ، وجهل (العم
 باخير) ، ويقول :
 — « إن الزبانية أنفسهم لا يحفلون بموت مثل هذا الزمار
 الجاهل والعنيد المفرور » .

حزنت الحارة كلها يوم لم تر (عم باخير) أمام السبالة وإمام المسجد . وعلمنا من نسوة الحارة أنه مريض بشلل خل برجليه . وأن الثرى صاحب الحمار ، وكان خيرا بارا ، حمله الى بيته وأوكل الى بناته الأبنكار - وكن جميلات عفيفات - شأن تطبيب العجوز والسهر عليه وخدمته . وقلن أيضا : إن الأبنكار الثلاث سهرن على علاجه كما يسهرن على خدمة قريب عزيز .

* * *

مات (العم باخير) مساء يوم الخميس السادس والعشرين من رمضان أمام الفتيات ، وهن يسقينه ماء الزهر بأيديهن العاجية ، غفر الله له .

أما فقيه الحارة وإمام المسجد ، فما زال يرزقان من أحباس الأوقاف ، أطال الله عمرهما .

لاقيت فى هذه الايام أحد رفقاء الصبا ممن كان يصحبنا الى سماع تزمير (العم باخير) ، وتذكرنا تلك الايام ، وتذكرنا نقوب باب المخزن ، وتزمير « أطراق » العجوز وشموعه وسألته :

- ما فعلت الأيام بالمخزن ؟

قال :

- اكثرته إحدى جمعيات الموسيقى . أرايت أعجب من هذه الصدف ؟ حقيقة لا أعجب فى أمر الله !

سهرت منه الليالي ...

- 1 -

كانت الحالة امرأة ممثلة الجسم ، يتحرك كل جزء منها بمفرده ، وهي تطلع درج السلم لاهثة ، شاخرة ، تتصبب عرقا ، وهي تصرخ مداعبة ابنة أختها من قبل أن تراها :

- : أين أنت ؟ أين ؟ ما هذا بسلم ! هذا الصراط ! أين أنت يا فتاتي ؟ لعن الله هذا الشحم الذي يعوقني عن التنفس .

- : خالتي ! سلامتك يا خالتي ! تفضلي . هو ذا المقعد الذي يريحك ، ويريح شحمك . لكن دعيني أقبلك .

وتقبلها ، وتجلس الحالة على المقعد ، وهي تزيج عن وجهها العصابة السوداء . وتفرس قليلا في وجه زكية ابنة أختها وتسألها :

- ما هذا ؟ ما لعينيك مورمتين ؟ اكننت تبكين ؟

- هو ذاك . . . لا يمكن إن أخفى عنك شيئا يا خالتي .

- ما أبكي عزيزتي ؟ ما أبكي صغيرتي ؟ قولي لحالتك المنون كيف ؟ . أتبكين في العام الثاني من زواجك ؟ هي أخلاق أمك المسكينة ، وهي في دار الحق ونحن بدار الباطل ، تتجلى فيك .



لقد كانت - رحمها الله - ولوعة بالبكاء ، احكى لخالتك كيف تعيشين ... مع ...

- : كما وددتني أن أعيش في جهنم منذ أقيمت بي في جحيم هذا الزواج ...

- : هذا زوجك ...

- : زوجي ؟ قولي جلادى ، فقلبه قلب جلاد ... وهو يقتل كل يوم شيئا منى - ستجديننى ميتة جامدة فى زيارتك المقبلة إن لم أذب وأسل دموعا من عيني .

- : خفى عنك ... احكى لى الاول بالاول ما وقع بينكما ...

- : إنه رجل خبيث أحمق ، سكير يسكر كل ليلة ، ولا يأتى بعد كل منتصف ليل إلا ليعربد على وعلى طفلي : آه ! لو لم يكن حمادى ابننا بيننا ! آه يا خالتي لقد كان فى أول سكراته يشتمنى شتما مقذعا ، وينعتنى بأقبح النعوت ولا يسمينى إلا بأخبث أسماء الأسماء والطيور : فأننى « حسب الحمار » بين الطاووس والوطواط ، أو بين التن و « النازللى » القبيح الرأس . ثم يجبرنى على إيقاد النار وطبخ « المشلوش » بعد الساعة الثانية من منتصف الليل ، وإلا فأنى استحيل فى نعته الى حمارة لا تجيد الطبخ

- : أعوذ بالله ! أعوذ بالله ! هذا شيطان ! شيطان بنىء القول ! ...

تقول الخالة هذا ، وهى تنظر شزرا الى باب غرفة النوم الموصود كأنها تسأل قريبتها بعينها إن كان ما زال نائما أم هل خرج لتعرف أى طريق تسلك فى نقدهما له ؟

وتجيب زكية :

- : إنه لا يصحو إلا بعد منتصف النهار كعادته . وإن صحا ، فلكى ينام ثانيا !

.. ينشام ؟

بين الكتب والجرائد التي تأخذ كل وقته . فانه لا يكلمني
إلا وهو سكران . فان صبحا فهو للكتب والاوراق . هي ذى
تملا كل الغرف . والويل لى إن فقد منها ورقة . ليتك زوجتى
أما مثل ! إن عشرة هذا لا تطاق .

— : لا تطاق !

— تصورى أنه رجع ليلة أمس يترنح سكران ، ورائحته
كرائحة النسناس ، وعثرت رجله بكتاب ألقاه الطفل المسكين ،
ولم انتبه له ، فصب جام غضبه على الطفل ، ولطمه لكمة كادت
تخرج روحه ، وودت افتكاكه منه ...

— الطفل أم الكتاب ؟

— الطفل يا خالتي ! .. حمادى ! .. فلطمنى أنا بدورى !
— كيف لطمك أنت ، ولا تقولين لى هذا من الأول ؟
آه ... إن الأمر أهم مما كنت أظن ، كيف ؟ أيرفع يده على
امراته وأم ولده ، هذا لا يطاق ... وصلنا الى اللطم ! اسمعيني
يا فتاتي . أنت صغيرة ، فافتحي أذنيك الى نصائح خالتك
المجربة : لقد زفقت الى ثلاثة رجال ، وأنا أعلم الناس بهم . إن
الرجل الذى يضرب امراته ليس برجل (تحتد الحالة كل
الحدة ، وتصرخ فى ابنة اختها) اسمعى ! اطلبى طلاقك منه ،
وسنحاكمه ، ونطالبه بتعويض ، وندخله السجن . إن القضاء ،
وكل الشرائع (الحسمانة دين) لا تبيح لأى رجل كان لطم
امراة ضعيفة . اطلبى طلاقك منه ! قلت لك ... اذ ليس بعد
اللطم من معاشرة !
— : الطلاق بحر ذاك .

— : اتصبرين على معاشرة هذا الفظ ؟ ! قلت : إنه
أحمق ، قلنا لا بأس ككل الرجال . قلت : إنه يسميك بأسماء
البهائم قلنا لا بأس سيغير نموته وتحسن معاشرتك له .
قلت : إنه سكير . قلنا : لا بأس سنتفخ كبده ويترك الحمرة .

قلت : إنه يحب مطالعة الكتب ، قلنا : لا بأس وهي وإن كانت
ضرائرك إلا أنها أخف وطأة من ضرة بشرية واحدة . لكن
وصلنا لسوء المعاشرة والضرب ... اطلبى طلاقك ، وأنا
الضئيلة بحصولك عليه من أقرب السبل .

- كيف يا خالتي ؟

- : « إن كان دمك هذا مثل الذي يجرى فى عروقي
(تقول هذا وهي تنظر الى معصمها المكتنزين ، والتي ضاقت
بهما الأسورة الفضية) إن لم يكن دمك ماء وسكرا وعصير
برتقال ، وإن كنت حقا ابنة اللبوة منجيه اختى - رحمها الله -
فستقومين توا الى لم أدياشك وتخرجين معي الآن . وعلى أنا
الياسقى .

- 2 -

تخجل زكية .. وتصعد بصرها لباب الغرفة ، غرفة النوم ،
وتصوبه الى الارض
- : خالتي لا ترفعى صوتك !

وتتحمس الحالة . ويهتز كل جسمها اهتزازا لا تجيده إلا
المرأة الشعبية ، وهي غضبي . وتصرخ :

- لا ارفع صوتى ؟ سأرفع صوتى ويدي ! لا أرفع صوتى ؟
ولماذا من فضلك ؟

- لئلا تزعجى ... تزعجيه !

- أزعج من ؟

- هو . دعيه ينام ... المسكين ... لقد سهر كثيرا ليلة
البارحة يا خالتي ! ..

سـ الغرفة السابعة

- 1 -

قال الطبيب ، وقد جذبتاه بشتى الحيل للخروج من صمته :
- إن سر المهنة يمنعني من إفشاء أسرار زبائني ، إلا أنني سأقص عليكم قصتي هذه لما فيها من عبرة ، ولا احتفظ لسر المهنة إلا بالأسماء الحقيقية للأمكنة والأشخاص . وأقول : إنني كثيراً ما استمعت الى خرافات المعاجز بما فيها من خوارق أحداث الأغوال والمردة . وكما قال شاعرنا سكاليزي :
« قد أصدق الخرافة عندما تخرج من فمك يا أمي » . ولعل في القليل الذي سطّته من خرافة طباحتنا المعجوز ، وهي قصتها أمسر على أطفال البيت ما ذكرني بقصتي هذه .

وقال احدنا :

- ما كانت خرافة المعجوز الطباخة ؟

قال :

- كانت تروي لهم قصة الساحر الذي اختطف ابن السلطان ، وطار به الى القصر المسحور الذي به سبع غرف كلها ذهب ، وفضة ، وعاج ، وآبنوس ، ولابن السلطان أن يدخل أيها شاء ، وأن يصنع ما شاء بما شاء منها ، إلا الغرفة السابعة ، فمجرة . وتوعده بالقتل إن حاول حتى يلاص مفتاح لى كوابتها .

تم سكت ، وتركنا متشوقين الى قصة شوق ابن السلطان
رؤية ما فى الغرفة السرية . ثم بعد أن مسح نظارتيه ،
واشعل لفافة ، أتم حديثه قائلا :

« كنت منذ سنوات عاجلت لى مستوصفى امرأة من مرضى
ما سرى خبيث يقتضى الحقن أشهراً متوالية . وكانت جميلة لولا
أن شوه الداء من شفتها السفلى . وكانت !.. كيف أنصتها
لكم ... » خضراء ... » لقد فهمتم بلا شك ، أعنى خفيفة ...
وفعلا كانت خفيفة الروح تجيد الحديث فى أدب . واتسزان لم
نعمه من مثيلاتها .

« قلت إن تطيبها يقتضى زيارتها مرارا كل أسبوع
للمستوصف حتى أنست بها وأنست بحديثها . ولا يقلقنى كثيرا
أن أسمها تقص ما تعانيه المسكينة . من مرير العيش . وقد
فقدت الفاض والبض من رأس المال . وهذا ما جعلنى أعالجها
مجانا . لا أقول هذا تبجحا ، وإنما الواقع أنى كنت أحنو عليها
بجاذب لم أدر مصدره . وكثيرا ما سألت نفسى : أى دافع دفع
بهذه المسكينة الى حياة استهتار وشقاء . وكنت أتصورها لو
كانت ربة بيت ، وأم أولاد ، وزوجة عامل مستقيم .

« تماثلت من البرء وانطفأت كل عوارض ذلك الداء
« الوقح » . واتفنى يوما تشكرنى على عنايتى بها . وقسمت لى
« مبسم » صدف مطعما بالفضة ، وقد لاحظت كثرة تدخينى ،
فقبلته ، وقد أعجبني لطيف ذوقها فى الاختيار .

ثم قولها :

« هذا أقل من أن يقدم اليك .

فضحكت وقلت :

« زيدبنى - اذن - هدية أخرى » .

خجلت المسكينة ، ولم تدر ما عنيت به . وفتحت فيها

وعينها ، مذهولة . فانقذتها من حيرتها بتقديم كرسى لها ويقول :
- لا . لا . ليس ذاك . . . سأطلب منك شيئا أؤمن بكثير من كل هدية مادية . أريد منك أن تعطينى شيئا من سرى . . . سر حياتك .

أما هي ، فكانها لم تفهم . وعدت الى تفسير سؤال :
- « أريد أن أعلم أيمكن هذا ، ولم تخنك ذاكرتك عما جذبك الى هذه الحياة . . . أعنى . . . »

اغرورقت عينها دموعا ، وألقت بنظرها الى زجاج النافذة اللامع وكأنها ترى فيه شاشة في دمعها من أشرطة لطفولتها وصباها من شقاء وسعادة .

- « لا بأس عليك فالدموع تطهرنا من كل دنس » وما دامت في عيوننا دموع فلا بأس علينا . »

قلت هذا بصوت مرتعش وقد اخضل جبيني بالعرق ، وللدموع وقار . حتى . . . دموع « الحضر » .

- 2 -

قالت :

- : « لم أتصور مثل هذه الحياة ، وأنا فتاة ولو حلمت بها في نومي لصحوت فزعة الفزع كله ! فلقد رببت في بيت محافظ . وكان والدي - رحمه الله - رجلا من غير هذا الجيل : شديد الفيرة ، شديد المحافظة على العادات البلدية القديمة ، شديد التزم ، ثقة ، ورعا شديدا ، ومغاليا في كل شيء ، فلا يتركنا نفاذر البيت حتى للحمام ، وحتى لديار ذوينا الأقربين ، ولا نعرف من الرجال إلا هو ، وجدى وعمى وخالى ؛ ولا من النساء سوى أمى وخالتى . وكنت أنا وأخت تصغرني بسنتين

نجهل عالم ما وراء جدران البيت . مع هـ ، فهو لا يحرمنا شيئاً من أشياء المأكل ، والملبس ، والزينة من حلى ، وحلل ، حتى المشموم والحناء ، واللّب . لا أدري الآن إن كان يجب أن أضحك ، أو أن أبكي من حياتي تلك . فلقد جاوزت السابعة عشرة ، وأنا أجهل كل شيء عن الرجال .

* * *

وقاطع الدكتور أحد الأصدقاء محتجاً :

- « ما علاقة الحقن والمبسم الصدفي بسر الغرفة السابعة ؟ »
وعلا ضحك الجساعة . وجذب الطبيب يد صديقه المحتج . وبعد أن جس نبضه ، وبعد التحقق من أن المحتج غير مصاب بحصى ، ولا يخشى منه إلا عدوى الضحك ، استأنف حديثه :
- « لقد صبرت أنا أكثر من ساعة على سماع هذه القصة . واعنت محدثتي على ربط حديثها ببعضه . وانت أعلم الناس بتفكك أحاديث النساء ، وكيف يلجن بك من حديث الطقس الى الحديث عن حلقة الحياطة ، الى غربال الشعر ، وانت لم تعلق سماعها في عشر دقائق . سأصف لك بعد انتهاء الحديث وصفة مفيدة لتهدئة الأعصاب . وكما قيل : « لو سكنت لمت على جبل عرفات » .

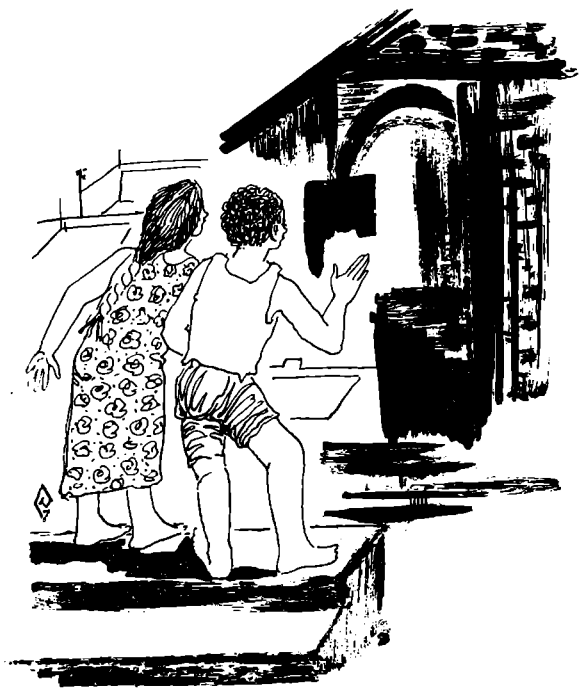
قلنا :

- « أتم حديثك ودعه يموت أين شاء . »

وعاد الى حديث المرأة . قال : قالت :

- « كثيراً ما كنا نسسخ أمانا تحدثنا عن الزواج ، والأزواج إلا أن كلامنا كانت تتخيل هذه الأشياء كما شئت . »

وكنا نعلم أن أبي تزوج أمي ، وأمي ولدتنا . أما كيف ؟ ولم ؟ فهذه أسرار لا تقولها أمي حتى إنها تحظر علينا مشهد مخاض قطتنا « مرجانة » . وتسجننا في غرفة حتى يتم ذلك .



« كنا نسكن بيتا عتيقا بدور واحد ، إلا أن سطح البيت به
غرفة ، والغرفة محجر علينا دخولها تحجيرا كليا . ولم نر
والدى ووالدتى يقصدان الغرفة المتروكة . وتحجيرهما هذا
أذكرى فى نفوسنا نار الاستطلاع ، وترك لحيانا أن يتصور ما
شاء من أسرار وكنوز هذه الغرفة اللعينة . إلا أننا ما نصل الى
الدرج الموصلة الى الغرفة إلا وثنانا خوفا من العقاب .
« فى قيلولة من قيلولات الصيف ، وكان والدى متغيبا عن
العاصمة ، وكانت أمى تقيل فى مقصورتها ، تواطت مع اختى
على شق عصا الطاعة ، والصعود الى الغرفة الجذابة على أن تطلع
كل منا بدورها ، وتبقى الأخرى للعسة . وسبقتهما أنا .

« لم يكن للقفل مفتاح ، وإنما بها مزلاج مصدا فتحته بعناء ،
وفتحت الباب ، وإذا بى فى غرفة مربعة صغيرة ، كسا
جدرانها العنكبوت والغبار ، وتمازجا ، وما تأنست عيناي
بنصف نور الغرفة ، وتأنست رثنائى بشقيل هوائها حتى رأيت
خلف الباب كوة صغيرة فى مثل عنق القلة ، لا تحميها قضبان
حديد جعلت للتضوية والتهوية ولهلاكى أنا .

« أول ما صنعتته ، بالطبع ، هو التطلع لعالم لم تعد تحجبه
عن عيني الجدران الكثيفة . ورأيت !

« كان البيت الذى خلفنا يدار لاشياء « سرية » . وقد علمت
ذلك بعد . ولم أر ساعتئذ من كوتى إلا رواقا صغيرا ، وفرشا
مطروحا على الأرض عليه فتى وفتاة أمامهما مائدة عليها قوارير ،
وكؤوس ، وشقة بطيخ أحمر ، وتلج .

« لم أنزل رغم إلحاح اختى إلا بعد نصف ساعة ، نصف ساعة
كدهر تعلمت فيها كل شئ . »

« وعدت الى غرفة السطح ، وعدت حتى تفتنت بذلك أمي ،
وضربتني . وحتى علم بذلك أبي وضربتني الضرب المبرح ،
وحتى الليلة التي وضعت فيها بشكيرا على رأسي وذهبت الى
البيت المجاور » .

سكت الدكتور .

وسأل أحدها :

- « ما فعل الله بالصغرى ؟ »

وسأل آخر :

- « لم ترك والد الفتاتين الكوة ، ولم يعمل على سدها ،
وكان ذلك هينا عليه ؟ »

لم يحفل الدكتور بهذه الأسئلة . ورآها خارجة عن موضوع
القصة . وود لو يتمادى في تفسير « رد الفعل » في نفوس
الأحداث ، وتأثير المفاجأة والمباغتة بالأشياء التي يجب أن نقبلها
بالتقسيط . ووددنا نحن لو فعل ذلك ، إلا أنه تذكر وعدا فقام
إليه وهو يزمر الغنية : الهوى والشباب ...

نزلة رائفة

وصلت القاطرة محطة رادس ، فنزلت • وبين غوغاء الباعة ، وضجيج المقتبلين والمودعين ، وقفت افكر آية جادة أتبع •
وبلدة رادس تقسمها المحطة الى « رادس عليا » و « رادس الشاطي » وأنا لا ادرى في أى القسمين توجد « فيلة » صديقي عبد الله التونسي ؛ فلقد دعاني صديقي ، هذا ، الى الفداء في « فيلته » الجديدة • وهو كلف بها ، لا يتحدث إلا عن أجراها ، وما كلفته أبوابها ونوافذها • إلا أنه لم يذكر لي موقعها ، كأنه يظن أن « فيلته » هذه هي زهراء قرطبة ، أو برج بيزه ، أو مدفن حيدر آباد •

بقي لي أن أسأل عنه ! ولكن الى أين اذهب • ومدينة رادس (I) بها ما يقرب من 35.000 ساكن • وأسأل بينهم عن عبد الله التونسي ، مع العلم بأن ثلث السكان مسلمون وأن ... كلى حديثي عهد بالاسلام يشعرون بهذا الاسم •

وما أخرجني من حيرتي هذه ، إلا أني رأيته واقفا أمام باب المحطة ، وهو يجهن نفسه في عند عربات القطار •

(I) في الأصل : « ولكن المصنف شككي في دقسي وبه ما ؟ »

قلت :

« هو ذا أنت ! » .

قال :

« أعلا وسهلا . لقد ظننت أنك لن تأتي ! » .

« هذه آثام . ألا تدري أن بعض الظن إثم ... وما

دفعك الى هذا الظن ؟ » .

« لا شيء ... هيا ... فهم يترقبوننا » .

« من ؟ » .

سكت صديقي لحظة - وقلما كان يجيب عن سؤال - ثم

استأنف حديثه قائلا :

« ستعرف اليوم أخي عميرة » .

« وهل لك أخ ؟ » .

« كل المؤمنين إخوة . أما هذا ، فهو أخى ، وإن لم

يحملنا بطن واحد ! » .

« هو أخوك من أبيك ؟ » .

« هو نصف أخ لنصف أخى ... أعنى أنه ربيب

امرأة أبى الثانية . وقد قدم اليوم من « الساحل » فى سيارته

الخاصة » .

ولا يذكر صديقى عبد الله سيارة أخيه الخاصة إلا كما يذكر

« البرنس أوف ولز » قصر « برمنفهام » .

اقتربنا من « فيلة » غريبة الشكل . وسمعت صوتا فى

داخل نفسى يقول : « إنها لعبد الله ! » فهى فى خارجها

كشكول من كل الأشكال المعمارية : فالطراز الأندلسى يزاحم

بمنكبيه طراز النهضة الإيطالية المزخرف بأفريز « لويس

الحامس عشر » ويزين الجميع جليز نابلي مشوش الوضع على ما

قتضيه الذوق العصرى الذى يكره التوازن .

فلو رأيت إذ ذاك صديقي عبد الله الثونسي ، وهو معتم بطريوش عليه عمامة حريرية ، ومرتد بدلة إفرنجية عليها جبة من قماش « القمرية » لعرفت مثلي أنه صاحب « الفيلة » . وجاء في المثل السائر : « كل البيوت على أصحابها تقع » . هذا عن « الفيلة » وصاحبها . أما (ربع أخى صديقي) فقد وجدناه واقفا بجانب سيارته الخاصة ، وهو يتسلى بالتطلع في دقائقتها ، وكأنه يراها لأول مرة . وله الحق ، فهي أغرب منظرا من مسكن أخيه .

سيارة لها كل الألوان ، وكل الأشكال . ولكنها لا تنتسب الى طراز نوع خاص . إذ هي خليط من كل أنواع سيارات الدنيا العتيقة والحديثة . والعجيب أن مجموعة القطع الحديدية التي يتكون منها محركها تدور وتدفع دواليبها الى الدوران . ولصاحبها أن يدور بها طرق الدنيا ، وحتى طريق الآخرة ، ولكنى لا أضمن له أن يعثر في دورانه على شركة ضمان واحدة تضمن له هذا الكدس من الحديد والمطاط .

وقدمنى اليه عبد الله ، فإذا هو رجل في مثل سن أخيه (أى : لا سن له) طويل القامة « يحمل » أنف ملاكم ، ونظارتين خضراوين ، وبدلة زرقاء عليها « كدرون » أسود ، وينتمل « بلغة » صفراء عليها « جزمة » صفراء أيضا لامعة تسر الناظرين لعلها أثمن ما يرتديه . ولعل « تشريفات » أخيه عبد الله جعلته يرتدى هذا الزي « الرياضى » ليعلم من لا يعلم أنه هو صاحب السيارة . وإن كان لا لزوم لذلك ، فلقد عرفت ذلك من نفسه أيضا (وقلب المؤمن دليله) .

رحب الضيف بصاحب البيت ، وكنت أتوقع العكس . فى فصاحة لم أتبينها جيدا لفاقاته وصمم أذنى اليسرى . والغالب على الظن أنه رحب بى أيضا ، ثم دعانا الى ركوب السيارة .

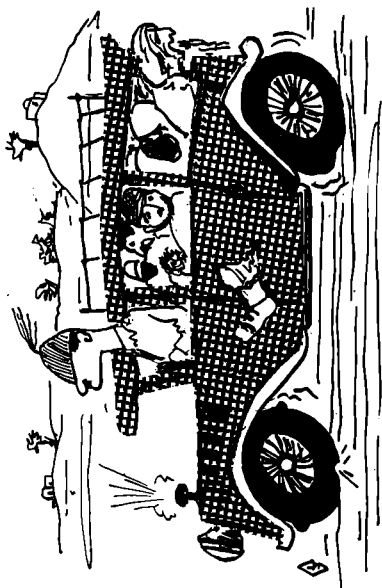
قلت :

- : « سوف نتشرف بذلك بعد الغداء » .
- قال عبد الله :
- : « سنتفدى على البسط الخضراء » .
- قلت :
- : « أى بسط ؟ » .
- وكانى حزرت ما يعنيه فأتت سؤالى متمجبا :
- : « فى مثل هذه القيلولة ؟ » .
- واجاب عميرة الغفاء فى ست دقائق جوابا لم يصل اذنى منه إلا : ... ظلال ... وأشجار ...
- ثم قال عبد الله :
- : « أنت فى مقام أخى هذا ، ولذا فانى ساقدم إليك أختك » .
- قلت ، وعلى فى كل علامات الاستفهام والتعجب :
- : « أختى !! وهل هى هنا ؟ » .
- : « وأين تود أن تكون فى مثل هذا اليوم ؟ »
- : « حيث تركتها ! »
- : « وأين تركتها ؟ »
- : « فى بيتها ... طبعاً » .
- وضحك عبد الله بأسنانه الصفراء . وضحك عميرة أخوه ضحكة رياضية جعلت أنفه الرياضى أيضا يغور بين وجنتين صنعتا من البطاطس الشهيرة بقرية غار الملح .
- وتكلم عبد الله تقاطعه القهقهة ، وعميرة بغافاته المضجرة .
- وفهمت أخيرا أن عبد الله يعنى بأختى زوجه المحترمة .
- دخل عبد الله « فيلته » وخرج بعد قليل يحمل أطباقا ثم

أطباقاً : تم أخرج سلة مملوءة خبزاً ، وقوارير ، وحققاً .
وأخرج عميرة بسطا و « كليما ، و « فاشكة » فى غلاف من
سعف أصفر، وقفة جبل كالدمر الذى ليس يدرى ما يلد ...
وأقبلت تتبعها « أختى » امرأة عبد الله ، وهى تتهاذى فى
ملحفتها المملوءة بها . وأقبلت تتبعها امرأة أخرى لم أر منها إلا
أنفاً يربو نيا عليه خال يقع على أعلى قممه ، ثم تبعته عجوز رأت
أنها تخطت العقود التى تحتجب فيها المرأة ، فكشفت عن
وجهها ، ورأت بشاقب رأيها أنها امرأة على كل حال . فزانت
هذا الوجه العتيق بحاجبين مدهونين بصباغ أسود فى غلظ
البنصر يستدان أفقياً من الصدغ الى الصدغ ملتصقين .
ووضعت دائرتين من اللون الأحمر على وجنتيها . أضافت الى
كل هذا فما واسعا قصيرة أسنانه الاصطناعية ، غليظة شفتاه
الاصطناعيتان ، وبشرة لا تصلح الا لعالم أترى أو طاولى آبار ،
ولولا خصلتان من الشعر الأسود الحالك تستران صدغى الأم
« ددو » وهى أحسن خصالها وتعطيان هذا « القناع الصينى »
إطاراً جويماً يحبس الضحكة فى حنجرة الهازى لفضحنى
الضحك من هذه الفاسلة المتصابية .

وأفهمنى عبد الله بإشارة « اشمزازية » أنها حماته
- والعياذ بالله - ورحبت بنا ، أنا وعميرة ، الأم « ددو »
بكلمات تقال عادة فى مثل هذا الموقف ، وتقولها هى ، وهى
تنمط وتقمز بكلتا عينيها الفائرتين . وكان جزء من جسدها
يتحرك من نفسه ، لنفسه ، ليعبر عما يكنه كل هذا الجسم البالى
من بقايا عجب وغرور .

وتبعتهن فتاة دون العاشرة . لا أقول عنها إلا أنها الكوليرا
الصفراء (لو كان ثمة كوليرا صفراء) أكثر حركة ودوراناً من
النحلة ، وهى كوم عظام متحركة يكسوها جلد شكلاطى وشعر
أصفر مشوش صفرة محلول « الاوكسيجينى » ولا ادرى لماذا
ذكرنى هذا التنافر بوجه الضمير وس .



جلست أنا وعميرة السائق ، وبيننا الفتاة الابليسية على المقعد الأمامي ، واكتظ المقعد الخلفي بالمرأة المجهولة وبجسم الحماة المتصايبة ، وجلس أمامها عبد الله وامراته . وبين أرجل الجميع كل القفف والقيروانات والأطباق ، وكان من حظي أن أودع عندي (فاشكة) وقفة فيها بيض وزبدة وعلب (السواقر) وتوكل عميرة على الله ، وعلى محركه ، ونفثت سيارتنا دخانا من أمامها ومن خلفها .

وسارت بنا تتعشر ، والناس من حولنا يبتسمون ، ويوسعون لنا الطريق .

علمت أن الفتاة ابنة للمرأة المجهولة ، صاحبة الأنف البربوني والخال ، وأنها أكثر من رفس رجل ، وأن كل العائلة تدللها ولا تنهرها ولا تردّها عن شيء لأنها ضيفة وابنة ضيفة ، وأنا ضيف مثلها وليس من مبادئى تحمل ثقل دل الضيفات الابليسيات ؛ فلقد وددت أن أقذف بها من نافذة السيارة وأربع جنبى ورجلى من رفسها المتتابع ، وما معنى من ذلك إلا انشغال يدي بالقفة والفاشكة . فاللعينة تختار المنمرجات الخطرة لتمسك بيد قريبها السائق وتجذبها بقوة لتسأله بكل برودة عن اسم تلك الشجرة أو ذلك الشخص الواقف حذو خندق الطريق . وتصور أن السائق أبسط من الفتاة وأكبر منها حقاً فهو يترك دفة القيادة لمشيئة الله ، ويلتفت نحو الشجرة أو الشخص موضوع السؤال ، أو تراه يحاول مسابقة سيارة نقل ، وهو يكرر نفخ بوق الانذار ، وهو لا يسابق إلا سيارات النقل ، فترمى الشيطانة الحبيشة بكل جثتها بين يدي السائق وتجعل من نفسها حاجزا بينه وبين الدفة ، وتكون إذ ذاك ساقاها ، بالطبع ، تعملان فى جنبى أو فى ظهري رفسا موقعا على حسب الوحدة . . . ولقد وددت ، والله قرصها قرصا لاذعا ، لولا خوفى من صراخها الذى سوف يزيد فى التشويش على السائق المسكين ، وبين يديه دفة القيادة ، وحية رقطاء ،

وأرواحنا جميعا .

كنا نسير فى طريق سليمان فى سرعة لا وجوب لنكرها . وكانت الفتاة لابسة حذاء من قماش به رباط طويل ، وما رأيت أشجارا إلا وقلبت هنا سنتغذى بحول الله . ويمر عميرة السائق بالأشجار وكأنه لم يجمع ، أو لم يرها ، وتعاقت الحيات والرفسات ، وأطرقت أفكر فى أمر هذا الغداء الذى لن يحين أجله قريبا ، ولم أعد أحفل بأشجار الطريق ، ومن عادتى الملعونة أنى كلما أطرقت أفكر فى شيء أخذت يداى فى عمل شيء ، وفى حركة آلية ، بدون أن أقصد ذلك العمل لذاته ، والغالب على ظنى ، أنى فى إطراقى إذ ذاك ، كانت يداى تعبثان برباط حذاء الفتاة ، ولم أدر الى الآن كيف دخل رباط الحذاء فى أذن القفة ، ولم أدر أيضا لم اشتبك بنفس الحركة الآلية برباط الفاشكة . ولكم أن تعتقدوا سوء نيتى أو حسننها ، المهم ، والواقع ، أن الفتاة جذبت فى صراعها المستمر رجلها قفجاة ، وفى حركة آلية أيضا ، جذبت معها قفة البيض تنبعا الفاشكة فى ثوبها القمشى ، وأحسست الفتاة بدورها بثقل فى رجلها فأعادت الحركة غضبى : وتناثر البيض ، وتناثرت السواقر ، وقطع الزبدة ، واختلط أبيض البيض بأصفره ، واختلط كله بملابسنا ، وفاحت رائحة ما فى الفاشكة قبل كسرعا ، وكثر تساؤل القوم عما وقع كأنهم لم يروا ما فعلته ابنيهم بالزبدة والتبغ والبيض . وبما أنهم كانوا يودون إيداعه بطونهم ازدانت به ملابسهم الأنيقة ، وكان حظى مما فعله الزجاج بيدى ورجلى أكثر من حظ الجميع .

وبالطبع ، أضافوا يخبث هذه العملية الى حساب البنت المدللة . ولم يفكر أحد منهم فى اتهامى بشيء ، وبعد عمليات الكنس والمسح ، استأنفنا السير لا الى المكان المعين للغداء ، ولكن لعين قريبة من ذلك المكان لتزيل بمائها ما علق بنا من أبيض وأصفر وأحمر .

هذه العين لا يعلم مكانها الا عبد الله . وإرشاده ، تركنا
الجادة المعبدة الى طريق لا تطرقه إلا الأرجل ولا تطرقه إلا
نادرا ، كثر فيه تعثر السائق والسيارة .

أما أنا فاني كنت شديد الوثوق من أن الوصول الى عين
زغوان أهون وأقرب من عين لا يعلم مكانها إلا عبد الله .
وما زلت أذكر لصديقي عبد الله نواذر غريبة في أمره
بالمعروف ونهيه عن المنكر ؛ فهو أحب الناس لفعل الخير
وإرشاد الضال . . وإن كان قليل التوفيق ، فليس الذنب في
ذلك ذنبه ، وإنما الذنب ذنب من استثاقه وعمل بمشورته ،
ولا أنسى يوم كنا في مدة الاعتصام بحمام الأنف ، إذ ذاك
عشرة أضعاف ما كان به من سكان قبل الحرب . وقل الحبز
قلة أقلقتنا على بطوننا وأجاعتنا ، فكان اللاجئ منا يقضي
الساعة والساعتين في صف المخبز لأخذ حصته . وفي يوم
كنت قضيت ساعة ونصفا في ترقب دورى أمام المخبز ، ولم
يبق بيني وبين الباب إلا أفراد قلائل ، وإذا بصديقي عبد الله
أمامي لا أدري من أين أتى وسألني .

– ماذا تصنع هنا ؟ .

كانه لا يدري ما كنت أصنعه وأجبته :

– أشتري الحبز .

فاقترب مني وأسر في أذني :

– لماذا لم تستشرنى في هذا ؟ اسمع وافهم : خبز هذا
المخبز أردأ أنواع الحبز ، ولي خباز صديق صدوق ، وخبزه أشد
بياضا من خبز هذا ، سأقدمك له ، وسوف يعطيك ما تشتهي
من أرغفة ومتى شئت . هيا اتبعني .
قلت ، وأنا لا أودّ أن أترك مكانى من الصف :

– لنترك هذا الى الغد . ها أنت ترى أنه لم يبق إلا دقيقة

واحدة لاخذ حصتي من هنا .

وكانه غضب من قلة ثقتي بصداقته للخباز صاحب الخبز
الابيض فقال :

— هيا اتبعنى . وسوف لا تندم . . . مالك ! . . . أتشك في
صدقى ؟ . . .

كنت أعلم جيدا أنى سأضيع فرصة ترقبتها ساعة ونصفا .
ولكن قوة خفيّة فى عبد الله وخجلا وضعفا منى ، دفعتنى إلى
سماع ترهاته . فتركت مكانى أسفا أمام تعجب الناس .
وذهبت أتبع عبد الله . وبعد أن جينا البلدة ومررنا بثلاثة
مخابز وصلنا الى الكوشة المقصودة واذا بها موصودة الأبواب .

وقال عبد الله :

— لعله نزل الى تونس يبتاع الدقيق .

لم أجب بشيء ، وإنما رجعت على عقبي الى المخبز الاول .
ولم أصل اليه إلا بعد أن نفذت كل الأرغفة ، ولم يبق إلا أنا
وعبد الله وجياح يتربعوننى فى البيت .
كل ما وقع أمام المخبز وقع فى التفتيش عن العين . فبعد
أن دخلنا أرضا رملية رخوة كسبخة لا يسير فيها « العنك »
إلا بصعوبة قصوى ، وبعد أن بعدنا عن الطريق المعبدة بما
يقرب من تسعة كيلومترات ، وقفت بنا السيارة وصرخت
امراة من خلفنا :

— هل وصلنا الى العين ؟

وقالت أم الفتاة :

— لقد قرص الجوع مصارن ابنتى !

كانها هى فى مأمن من قرصه .

وأجاب عميرة :

– بالحرك خلل بسيط .

ونزل اليه يختبره ، ثم أردف قائلا :

– هما الشمعتان .

وسألت العجوز :

– هل تضاء بالشمع ؟

وقالت امرأة عبد الله في لهجة الحبيرة بكل الأمور :

– لقد كذبت حاسة شمي مرارا وأنا استنشقي شذى شمع

يحترق ...

وقال عبد الله :

– لا . لا ، تلك رائحة البيض امتزجت برائحة كحول

الوقد .

وأخذ عميرة في اصلاح سمعه وأخذني خوف من اصلاحه

أكثر مما كان أخذني من سياقته المشاغبة للعين .

ونزلنا نستكشف المكان الذي أوقفنا طالعنا فيه .

وقال عبد الله : إنه يعرف المكان جيدا ، وهو يعرف كل

شيء جيدا ، وهو يقترح أن يبقى عميرة يحرس الحريم ويصلح

ما أفسده الدهر من محركه ، وهو يدعى أنه يعلم مكان العين

المزعومة . ولكننا الآن اقتربنا من بشر فلنذهب أنا وهو والفتاة

لنستسقي منها . وحملت أنا وهو دلوا من قماش ، وحملت

الشيطانة الصغيرة « شربية » ودلنا عبد الله على الطريق

كمادته . وبالصدفة التي تعترضنا مرة في العمر ، وقفنا على

بشر وتسايقنا أنا والفتاة اليها . وإذا بعبد الله يتبعنا منذ رأى

ماء هذه البئر شديد الملوحة ، ويخلف شرب ماؤها حصى في

الكبد ، وأن البئر التي يقصدها هي غير هذه . وبنفس

الضعف المخجل ، اتبعنا الدليل الذي لا يرحم جوعى ولا الفتاة

المتعثرة برباط حذاثها . وكان يسرع في خطاه نحو أرض

جبليية . وأخذنا في تسلق ثناياها في عناء شديد . وبعد قطع

ما يقرب من ثلاثة كيلومترات ، أخذ يفتش عن مكان البشر
وكانت الفتاة التي تصحبنا أشد نباهة منا فانها سألته :
- هل تفتش عن بشر لتحفرها الآن ؟

وكما توقعتم ، فقد رجعنا بأوانينا خفيفة الى البشر الأولى ،
ووجدنا ماءها حلوا مستساغا ، روانا ، وأزال عنا ما علق بنا
من أبيض وأزرق .

رجعنا الى المكان الذي تركنا به السيارة والنساء : ووجدنا
عميرة قد جعل من سيارة واحدة ألف قطعة حديدية مبشوة
هنا وهناك .

ونظرت الى ساعة السيارة . والمعجب أنها هي الآلة
الميكانيكية الوحيدة التي تسير بشبه انتظام في هذه السيارة
الملعونة . وإذا الساعة الثالثة والنصف ، ولم يبق أمامنا إلا
الأكل وإرجاع الألف قطعة محركا ، ولم يبق إلا أربع ساعات
ونصف للغروب وعوننا بالله .

لنترك عميرة يعبث بأسطواناته وأقراصه المربعة والمسدسة،
وهو يعوم في بحر من الكلاليب والمطارق المبشوة حوله بث
الزيتون على بسط القاطفين (ولا أقول الجناة عمدا) لا نسمع
منه إلا (تيك تيك دم درن درن) مما يشكوه الحديد من أصابعه
التي لم تخلق إلا للتدخين ، ولننظر في أمر الفداء

قلت آنفا : إن الكحول الذي أعدوه للطبخ قد أريق وكسرت
فاشكته أشنع تكسير ، ولم تبق من طريقة لإيقاد نار إلا جمع
حطب ، بشرط أن يكون قابلا للالتهاب . وحزرت بغطنة لم
أظن بوجودها قبل تلك اللحظة في يا فوخى أن عمدة
التحطيب ستتناط بنا أنا وعبد الله والفتاة .

ورأيت هنا أن الأهون هو أن أقوم بمحاضرة طويلة مقنعة
في فوائد أكل الطعام باردا . وارتجلت لهم أسماء يونانية

وعربية ولا تينية لأعلام نصحوا بذلك . وارتجلت حججا وحججا
لا شك أنها أبرد بدرجات من الطعام البارد إذ لم تهضمها
أدمغتهم المتخمخة بأشياء أخرى لا داعي الى ذكرها هنا . وعوض
ما كنت أتوقعه من تصفيق حاد متواصل لا نهائي . . ختمت
محاضرتي باحتجاج العجوز :

- بالله هلا اضعت وقتك هذا في جمع شيء يوقد
أكثر من الحديث ؟

وقالت إحدى المراتين :

- حديثك يفيد كثيرا لصنع (الجيلاط) .

وودت أن اهرب منهن الى الشيطان ذاته لو علمت عنوانه .
وود صديقي عبد الله أن نهرب منهن الى التفتيش عن الحطب .
ولم أجد مخلصا إلا أن أجيبه بالموافقة ، وأنا أنوى التخلص
بالهروب منه في الطريق .
وسرنا ، وأنا أردد في نفسي قول الحمار الفيلسوف . ولا
أغنى به الفيلسوف الحمار فتنبه ! عندما قيل له : « إن أصحاب
عرس يدعونك الى الوليمة » .

فأجاب برصانته المبهودة وهو يحرك أذنيه : « هذا إما لحمل
الحطب وإما لحمل القرب » .

وقال عبد الله : إنه يعلم مكان غاب صغير به حطب ،
وذكرت حديث اللدغ والجحر ففتحت مذاكرة مع الداعي قلت :

- أترى الجبل ؟

قال : نعم أراه .

قال : هذا وهو يضع نظارتيه كان (بوفرين) لدقته لا يرى
بدونهما .

قلت : اوفيه حطب ؟

قال : بدون شك ! هذا الشائع عنه !

قلت : اليس هو الغاب الذى تعنيه ؟

قال : الغاب حوله ، أعنى بقربه •

قلت : فى كم من الوقت نصل الى حطبه ؟

قال : اراه قريبا •

قلت : سألتك عن الوقت •

قال : بالضبط ؟ لا أدرى ، ربما فى نصف ساعة !

قلت : ما أحسن ظنك بالطرق ، بيننا وبينه ساعات طويلة ،

وسوف لا نرجع منه قبل الغروب وقد فعل الجوع بنا ما تعلم

ولم يبق إلا أمران ولك الخيار فما اخترته عملنا به •

قال : هات !

قلت : خذ ••• إما أن نتغذى غداءنا كما كنت أنصحكم ،

باردا شهيا ، وإما أن نوقد بعض هذه الأعشاب بعد أن نسقيها

بنزينا •

قال : وقد فتح كلتا عينيه ولم يفلق بعد ذلك إلا واحدة كمن

فهم جملة من جمل « نيتشه » •

البنزين ••••• والسيارة ؟

قلت : وهل بقيت سيارة ؟ وقد فعل بها عميرة ما فعل !

هى اليوم لا تمشى بنزين طبيعى ولا صناعى فلنستعمله

للووقود خير من عدم استعماله مطلقا •

ورجعنا ببعض الأعشاب واولعناها حسب ما تأمرنا عليه •

وكانت فكرة مصيبة بعض الاصابة إذ انى كمادتى لم أحسب

حساب الفتاة التى لم تر النار حتى أصبحت كالغراشة (أعنى :

كالغراشة المجوسية) تحوم حولها حبا لها وعبادة وشيطنة •

وفى كل مرة تصرخ أمها بصوتها الحلقى :

- ابتعدى يا كبدى لئلا يشويك اللهيب لا شوى الله كبدى
فيك يا عزيزتى ، يا كليبتى ويا عصفورتى .

وتبقى تشبهها بكل الحيوانات البرية والبحرية . أما الكبد
العزیز ، فهي لا تحفل بما تنشره أمها من جواهر بلاغتها وقد
انحصر همها فى أن ترى النار « ترعى » بستانها « المزهر » .

كما أنى لم أحسب حساب النكهة التى سيخلفها البنزين
فيما كتب لنا أن نأكله من الغداء ، كنا إذ ذاك نحرق أصابعنا
بالتوالى ، ونحن نتبادل حراسة الأطباق على أثافيها ، وكلنا على
النار (أعنى : نحن والأطباق) . وفرشت البسط وهيثت
الأماكن لكل منا على قاعدة عدم اختلاط الجنسيتين . وفتشنا عن
عميرة فى خضمه الحديدى فلم نجده . وبعد البحث والفحص
وتتبع آثار رجله فى الرمل عثرت عليه الفتاة العنود تحت
السيارة يتظللها وليضللنا نحن بدورنا . ادعى أنه كان يصلح
خيوطا فى أسفلها هو الذى لم يتمكن من اصلاح
أعلاها وعلى كل حال ، لم نحفل كثيرا بما يصلح أو بما
يفسد أو بما يقول .

وكانت الأطباق تفوح بهارات ، وفلفل ، وبنزينا ، وكان
الطبق الأول سلاطة ، قد حضرتها الحماة السليطة كأحسن ما
« يسلط » من طماطم وفلفل اخضر . وكان طبقا لذيذا لولا
أنها غلطت غلطة أو غليطة اذا شتتم . هي أنها اختلطت عليها
الحقق والعلب ، فوضعت التاي الاخضر عوض النعناع الشهى ،
كما اعتاضت عن الملح بالسكر فى طبق « الكوشة » وحصل ما
يتوقع من جراء غلطاتها هذه ، إذ هي كما استعاضت عن الملح
بالسكر فى طبق اللحم وضعت ملحاً ونعناعاً فى « البراد »
المعد لتحضير ما يمكن أن يكون تايًا .
انتهى غداونا . ولم نأكل منه إلا الحبز والماء ، وقام عميرة الى

إفساد ما بقى من سيارته وهو يهيب بأخيه :

- هيا الى إرجاع هذه •

ويعنى بهذه الالف قطعة الحديدية •

وضحكت ضحكة مكتومة من غداثنا هذا ، ومن حياتنا هذه ،
فكل جزء من حياتنا يعيد نفسه فى كل لحظة • ها نحن أخذنا
طيبات الحياة الشهية ولم نقنع بها كما خلقت ، ووددنا
تحسينها ، وتكيفها ، وصقلها ، وترقيتها ، فتشعبت ،
وأضحت كطيبات غداثنا هذا •••

وكانت غراثنا البشرية تسيرنا وتسير فينا من نفسها
بنفسها ، كما كانت تسير سيارتنا • وأتى جماعة من علماء
وفلاسفة حكماء ، وحاولوا إصلاحها ودرسها وفحصها لطرح ما
فيها من شر وقلعه قلعا ، وتحسين ما فينا من خير ، ففصلوا
بعضها عن بعض وأوقفوا سيرها ، وجعلوا من غريزة البشر
آلاف الكتب كل كتاب يحوى آلاف الفكر المفككة المطروحة
(كرواشك) سيارتنا التى لا يمكن أن تسير بعد الا مجرورة
الى هاوية (جبل الجلود ، ويبدون فيل) حيث تطرح القطع
التي لم تعد تصلح •

هذا ما فعله عبد الله بغداثه وما فعله عميرة بسيارته وما
فعله بحياتنا وأنفسنا دوما • فالويل لأنفسنا منا • كنت
أقول هذا ، وأنا أستعيد بالله من هذه الأفكار القاتمة الكالحة •
وأتجه نحو نقطة سوداء كلما تأملت فيها ازداد حجمها كبيرا ،
ولما تبينتها فاذا هى عربة نقل ، يجرها بغل قد تدلى لسانه الى
جانب أحد فكبيه ، كما تفعل بغال تنظيف العاصمة فى فصل
الحر • واتجهت مسرعا نحو السائق ، وأنا أدري جيدا ما نويت
القيام به ، فقد فقدت كل ثقة بالسيارة والمسير لها • ووجدت
سائق العربة رجلا بدويا يحتقر السيارة ومخترعها الكرام ،
ويكرها كرها شديدا ، لما تخرجه خلفها من دخان وغازات

ذرة تضجر أنفه وأنف بقله •

وبعد أخذ ورد ، أقنعت به بأن سيارتنا لم يبق فيها ما
خشاه ؛ أولا : لأنه سيجرها هو خلفه بعربته ، ولا خوف هنا
لا من غازات بقله فقط • ثانيا : أن في صحتنا « حريما » لا
يمكن أن نتركه يخلد في هذا البرزخ الرملي • وما زدتنا اقتناعا
بأن عمله هذا إنساني إلا عندما وعدته بمكافأة تفرى أطيب
الناس أمثاله على فعل الخير وإغاثة المرأة الضعيفة (آه لو علم
المسكين كم هي ضعيفة) •

ما رأى عبد الله العربة حتى التفت نحوي مذعورا ، وسألني
في حدة لطيفة :

— ألا تكفي هذه السيارة الملونة وما نقاسيه منها حتى
تشفعها بعربة قدرة كهذه ؟ ما تريد أن تصنع بها ؟

وأفهمته أن العربة القدرة ، هي كسفينة الطوفان لا في
قذارها ، وإنما في فائدتها • وهي الوسيلة الوحيدة لإخراجنا
من مأزقنا هذا •

أقنعت عبد الله ، وهذا سهل وأيم الحق ، ولم يبق إلا أن
نتعاون أنا وهو على عناد أخيه عميرة الذي تنقص ثقته بسيارته
وبنفسه ، والذي أمام الواقع المر يحاول أن يقنعنا بأن إصلاح
« الموتور » لا يكلفه إلا نصف ساعة من الوقت على الأكثر ،
ونحن كلنا نعلم — وهو في ضيقنا — أنه قضى أكثر من ساعتين
في فكّه وتقطيعه • ورأينا أن البحث البيزنطي لا يفيد مع أهل
بيزنس ولا مع عميرة • وحفظا للوقت أخذنا في لم شعث
« موتوره » ووضعنا في القف والاطباق والصناديق ووضع
الكل مع البسط والمجوز المزهوة داخل السيارة • وبالرغم من
امتناع عميرة ، أخرجنا جبلا أحكنا ربطه بين مقدم السيارة
ومؤخر العربة • ولم يبق إلا أن ندفع أنا وعبد الله وعميرة

السيارة من خلف لنمين البفل على جر هذا القطار الصغير .
وخلفنا النساء يتبعنا متعثرات ، ومجموعات متنهكات الواحدة
خلف الاخرى على طريقة الهنود الحمر . كان عملنا شاقا .
وكان الجو مغيما قاتما يشبه تماما أجواء نفوسنا القلقة
المضطربة بين أمل الوصول الى رادس وخيبة المبيت في هذا
القفر بين الخوف والجوع . وهذا ما جعلنا ندفع السيارة بكل
ما أوتينا من قوة . وهذا ما دفع شيطانتنا الصغيرة لجر ساقها
جرا ورفع الرمال التي يحملها الريح ويذروها في عيوننا
وأنوفنا بكل امانة .

كنت وأنا أدفع السيارة ، مجبورا على لمسها بكفى مشمئزا
من لمس هذه المادة اللعينة التي يسمونها الحديد ولم يشق
الانسان إلا حين أراد أن يستغنى عن أخيه الانسان ويستعيض
عنه بالحديد . وأخذت أفكر في الحديد ، وفي عصرنا هذا ،
عصر الآلة والحديد ...

كل منا له في بيته ركن للمهمات ، تلقى به الأشياء التي لم
تعد تصلح لشيء واكثر هذه الأشياء من هذه المادة المشؤومة
«الحديد» . وكل هذه الأشياء اقتنينها يوما ما فرحين ، كأحسن
وأففع اختراع أحدث لراحتنا . فهذه الآلة لفصل الصحون
استعملتها يوما وبعض يوم ، ووجئت أنها تكسر من صحونك
أكثر مما تفعله ، واستعملت اسبوعا على الأكثر ، ثم ألقيت في
ركن المهملات ، لأن المرأة الضعيفة وجدت أنها تنزع منها صبرها
ومن وقتها الثمين أكثر مما تنزع من قشور ولب ، أمثال هذه
الآلات الحديدية لا يقع تحت حصر ، فكلها مفيدة ، وكلها
استعملت أياما ثم ألقيت في مقبرة الاختراعات .

* * *

تصور فرح كولومبس وهو يرى شواطئ أمريكا ، ثم
بعملية حسابية بسيطة اضربه في فرح قائد رحلة «سيتروان»

السوداء والصفراء ، وهو يصل الى مرفأ الأبحار بعد قطع أدغال
افريقيا أو جبال الهملايا ، الحاصل عندك من عملية الحجاب ،
هو ما شعرنا به جميعا ونحن نصل الى الطريق المعبدة ، جادة
النجاة . فالنساء تولون بكل حلوهم ، ونحن نتبادل التهاني :
هذا يداعب عنق البغل البطل ، وذاك يطنب فى مدح السائق
البدوى ويصفه بكل أوصاف حاتم طى وعنترة بنى عباس .

وصلنا على الساعة السابعة والنصف الى بلدة حمام الأنف
فودعت عبد الله وعميرة ، وشكرتهما على ما لاقيته من حفاوة
فى هذه النزهة اللطيفة الرائقة ، وتواعدنا على إعادتها فى
الاسبوع المقبل ، وأنا اضمر إخلاف الوعد على أن نهيه بمحذونا
باعتناء أكثر ، وودعتهما وأنا أبكى بدموع الأسف على فراقهما ،
والسرور بنجاتى ووصولى الى بلدة بها محطة للقطار ، حتى انى
من فرحتى قبلت الفتاة الشيطانية ، ودخلت مشتى حمام الأنف
افتش عن ... مطعم ...

ام حواء

www.jadidpdf.com

مقدمة أم حواء

على نمط ولسان : طه حسين

قدم إلى ابني وصديقي على الدواعي قصته هذه قبل الطبع ، ثم قدمت إلى بعد الطبع ، وقد أعجبت بقصته ، كما أعجبت بعنوانها (أم حواء) ، وربما أعجبت عنوانها أكثر مما أعجبتني القصة ، وأنا معجب بالعناوين أيا إعجاب !

قد لا يكون عنوان قصتنا هذه طريفا ، وقد لا يجرى به اللسان في سهولة وقد لا يستسيغه السمع ! وقد يكون هذا العنوان غريبا ، وقد لا يخلو من بعض النفرة ! بل قد يكون غامضا بعض الشيء . ولكن توضيحه يسير ، ومع كل هذا ، فالعنوان صحيح ، وهو يختصر القصة كلها فالقصة هي قصة (أم حواء) .

أمامك في هذه القصة امرأتان ، أو على الأصح أمامك امرأة وابنتها ، أمامك امرأة عجوز تحب ابنتها أيا حب ، وتحنو عليها أيا حنو ، وأمامك هذا الزوج - زوج حواء - وقد اختار له صديقي المؤلف اسم (آدم) وقد أحسن اختيار هذا الاسم لهذا الزوج الذي ضاق ذرعا بحماته التي يدفعها حبا لابنتها أن تناصب نسيبها (آدم) العداة ونشأت عنه مصاعب وعتاب لم يكن لتذليلها من سبيل .

في هذه القصة نظرية تناقض نظرية العلامة «ديكورت»
في موضوع الحماة • وتناقض أيضا نظرية بول «هرفيو» •
كما تناقض نظريات الاغريقين - بما فيهم من سقراط
وابقراط - مناقضة تامة • ولكنها مع ذلك صحيحة
صادقة • نظرية تثبت خطر الحماة ، وان معاشرة الحماة
لا تضمن خيرا ، لا لابنتها ولا لزوج ابنتها • وهذا
يستلزم شقاء وآلاما أكثر مما يستلزمه موت الحماة حيث
لا يدوم حزن ابنتها عليها أكثر من أسبوع أو أسبوعين
على الأكثر ، وإذن فحياة الحماة لا تضمن الخير ،
والانسانية مضطرة أن تضرع الى الله أن لا يبقى حماة
على ظاهر الدنيا • وهي مضطرة الى هذا الدعاء أيضا
اضطرار ؟

طه حسين

طبق الأصل : على الدواعجي

نهاية أعزب

- 1 - (*)

وقعت حوادث قصتنا قبل صدور قانون التمسك بقرون
(٠٠٠) والمرغوب من حضرتكم إخلاء الجثة في ظرف ثمانية
وأربعين ساعة وليست دعواكم من أن (من واجب الملاك وضع
حاجز بين كرمة سكناكم وسانية التفاح) ليس من الوجاهة
في شيء ، وكان من و بكم أن لا تمسوا رزق غيركم بسوء .
أما وقد فعلتم وشهد الشهود ممن يستثاق بشهادتهم أنهم
راوكم وأنتم تسرقون الغلال ليلا النى منها والناضج بمعونة
أفعى فقد حكمت المحكمة بأن تخلوا الكرمة كما وجدتموها يوم
سكناكم من الأجل المذكور أعلاه .

تنبيه : أرسلت نسخة الى جارتكم (أم حواء) وابنتها
لوقوعهما في مثل ما وقعتم فيه .

(المسجل : عزرائيل)

(*) ذكرت مجلة « الفكر » أن لهذه القصة خمسة فصول . أما الفصلان رشم
(٢ - ٣) فقد تسلطناهما من الأستاذ توفيق بكدار « مشكور » - نفعنا
مخطوطة المخطوط .

وتع هذا الاعلام في يد آدم وقوع الصاعقة فهو حديث عهد بالحياة وهو في حيرة من أمره . أين يذهب بعد مضي الأجل المضروب ؟ أين يسكن ؟ ولكن بيوت الحارة عامرة ! لم يسبق أمامه إلا أن ينزل الى الأرض . نعم ! ولم لا ؟ اليسست الأرض أوسع بكثير من عدن المرصوفة بالملائكة رصا ، وهو لم يعد يطبق معاشرتهم بعد ما شهر أمر سرقة للفلال ؟ نعم . قد حلت الهجرة الى الأرض حيث لا يعرفون عنه شيئا ، الى الأرض مأوى الجنة أمثاله .

بينما هو في تأملاته اذا بباب الكرمة يطرق خفيفا . من يكون الطارق يا ترى ؟ أهو محضر آخر أتى ببطاقة أخرى ؟ أم هم أعوان الشرطة الزبانية اتوا لآخراجه بالقوة ؟

وجم آدم لمراجعة موقفه ذاك . وأخيرا بعد أن شجع نفسه بكوب (كوثر) ممزوج بقليل من الماء تقدم وفتح المزلج واذا بالطارق ابنة جارته وشريكته في الجناية تدخل عليه وهي منقبضة النفس تحمل في يدها جريدة (صباح الجنة) وهي الجريدة اليومية الوحيدة التي كانت تطبع إذاك في (عدن) .

أخذ الجريدة بدون أن يفوه بكلمة ، وبدون أن يرد سلام جارته اللطيفة . أجال فيها نظراته المتهبة . وفي الصفحة الثانية تحت اعلانات (سيارات فردوس) في المكان المخصص من الجريدة لقضايا البوليس الملائكى ، قرأ آدم ما يلي تحت عنوان (سرقة) :

« حكم أمس على المسمى آدم ، القاطن في شارع سدره المنتهى وعلى المسماة أم حواء وعلى حواء ابنتها ، القاطنتين في نفس الشارع المتهمين بسرقة سانية التفاح الواقعة في شرق الشارع نفسه » .



قال هذا والشرر يكاد يتطاير من عينيه • تم انطوى على نفسه •

وقال : « وجع يقطع امعائى • هذا من جراء تفاحك يا غادرة ! » •

- : « وأنا أيضا ، يا آدم ! سنستانس بهذا ، إنهم يسمونه مرض الفائط كما قاله القاضى • ولكن لا يجب أن نعمل شيئا فى الجنة إلا اذا ••• • » •
- : « يا خائنة ! هنا فى الجنة ؟ أتريدين أن نعمل مخالفة جديدة ؟ ومن هذا النوع القذر يا خائنة ؟ إن هذا المرض قد أصابنا جزاء على جريمتك الاولى • وقد طردنا • هذا جزاء من يستمع إلى أقوال النساء ! إنهن لا يستحيين ولا يثبت على وجوههن شعر ، أمثالك • » •

- : « أجهشت بالبكاء ، وكالعادة ألقى برأسها على صدر آدم • وانحصرت فيه حتى كادت تدخل فى ضلعته الموهجة • فلان لها قلبه ، وجعل يلحس دمعها عن جفونها ، والدمع يغلبه ، ويفيض على وجنتيها ، فيلحسه عن وجنتها الملتهبة بلسانه ، وقد نزلت على وجنتها دمة كبيرة • ثم سقطت على شفتيها القرمزيتين • فمسح هذه الدمة بشفتيه ، ومع أنه قد تطعم ملوحة هذا الماء ، فقد استعذبه • وما التصقت الأربع شفاه حتى أحس أن المسكينة حواء قد ارتخت بين يديه ، وكانت هذه أول قبلة وآخر قبلة فى الجنة • » •

- 2 -

كانت نجوم السماء تلمع لمعانا أعجب آدم كل الاعجاب اذ هو لم يعهد النجوم فى الجنة • لم ير آدم نجوما ولا ظلما قبل اليوم • ولم يكن ثمة ليل مظلم فى الجنة • كانت الجنة كلها نورا • ولقد طرب آدم لظلام الليل على الارض كل الطرب •

ولقد أعجبته هذه النجوم التي تشبه دموع حواء ، والبدر ! !
إنه ليشبه تلك الدمعة اللامعة على شفتي حواء . وكأنه تذكر
القبلة ، لانه قام من مرقده وأخذ يفتش عن حواء برفق حتى لا
تبتسقظ أمها اللعينة . وأخيراً عثر عليها جالسة خلف
« العشة » التي ابتناها لها آدم فى صباح ذلك اليوم . اقترب
منها آدم ثم جذبها من يدها قائلاً :

– ما تنظرين ؟ .

– تلك البقع البيضاء حول تلك الدائرة المشرقة ، أنا لم
أرها قبل اليوم . كانت الجنة مضياء ليلاً ونهاراً بطريقة
واحدة ، فما للدنيا تغير حازها بعد ساعات ؟ لقد كان منذ ست
ساعات قرص آخر يضيء الكون (؟ ؟) فما بال ذلك القرص
المضى قد ذهب وحل محله هذا الذى – وان كان جميلاً – لكنه
لا يضيء كالآخر .

– أى نعم ، حواء ، أنا فى حيرة وفى خوف اذ لو دام هذا
عوض الآخر لما أمكن لى أن أبتنى عندما أستيقظ غداً كوخاً
آخر لى .

– أستبنى كوخاً لك ! وهذا كوخنا يسمعك لو أحببت أن
تسكن معنا .

– حواء ! أتذكرين يوم خروجنا

– أى نعم ، آدم .

– يوم أن مسحت لك قطرات الماء النازلة من عينيك .

– أى نعم ، آدم ، أذكر

– هلا أنزلت شيئاً منها الآن لأمسحه لك .

– هي نازلة الآن فامسحها (بخبت) .

- إننى لا أراها .

- النور لا يكفي الآن لرؤيتها . ولكنى أحسها هنا (وهى تضع يدها على شفتها السفلى) .

كان آدم يعلم أنها تكذب . ولكنه لم ير . ان يبخسها فأخذ يلحس شفتها بلسانه ، وكأنه وجد لذة فى لحسه شفتها فأخذ يمتصها مصا ، وكانت هى بدورها ترد له الفعل بمثله ، وهى متكئة على مرفق يديها . وكانت يده تحت عنقها . أزاح آدم برأسه لكى لا يضع نور البدر الضئيل أن ينير وجهها فوجده أجمل مما كان عليه نهارا . قال - وهو لا ينتظر الا لشفتيها وأنفها الاقنى الحذاب وعينيها - كلمته الحائلة التى ما زال يرددها أحفاد أحفاد أحفاده فى مثل هذا الموقف :
« آه لو دام هذا ! » .

كانت حواء تصنع البكاء دائما لكى يمسح آدم دموعها بلسانه . وكانت تجد لذة فى إعادة العملية كلما أمكن لها ذلك .

وفى يوم كانت أم حواء تشرب الماء من « قلعة » كانت قرب بيتها ، وكانت ابتتها بجانيها تنسرح شعر رأسها بأصابعها ، نظرت العجوز لسطح الماء فرأت صورة وجهها المجعد لأول مرة : فلم تجده يشبه وجه ابتتها النضير فى شيء ولا حتى وجه آدم ، فبكت اذ ذاك العجوز المسكينة وبكت حتى فطنت ابتتها لبكائها ، فما أسرع أن ذهبت تستدعى آدم الذى كان جالسا فوق رهوة جادا فى سلع جلد ضبع قتله البارحة . ونادته بصوت يذوب رقة :

- آدم ! .. أرى يسيل الماء من عينيها هيا آدم امسحه ... لها .

تعود آدم سكنى الارض وتعود صيد الوحوش ايضا . لكن
شيئا واحدا يقلق آدم أكثر من غيره من الاشياء هو سقوط
المطر فى بعض الاحيان ، وهجير الشمس فى احيان أخرى ،
فلماذا هذا التبديل من الضد الى الضد ! ثم ما هذه الدمعة
التي يسبحها كلما امطرت السماء بوابلها او طلها ؟ إنه لا يشبه
هدير الجمل ولا أصوات الحيوانات الأخرى . . من تراه يعبث
لإقلاق الناس بهذا الصوت . . .

وكلما تصور آدم صاحب هذا الصوت تراه يجرى نحو حواء
التي تكون بالطبع فى بيتها فى ذلك الحين .

يمكنكم تحميل المزيد من الكتب الرائعة على موقع

www.jadidpdf.com

مصادر القصص

عنوان القصة	مكان وتاريخ النشر
1 (كنز القفر	الماليم الأدبي اوت 1935
2 (جارتى	نثرية التطور الاجتماعى 1936
3 (فى شاطئ حمام الألف	جريدة الروود سبتمبر 1936
4 (الصباح القلم	القلم المر 26 جوان 1938
5 (داعى النجوم	المباحث جوان 1944
6 (احلام حدى	المباحث جويلية 1944
7 (الركن النير	الشريفا نوفمبر 1944
8 (امن تذكر جيران بلدى سلم	المباحث فيفري 1945
9 (مجرم ولحم انفسه	الاسبوع 24 ديسمبر 1945
10 (قتلت غالية	الاسبوع 7 جانفى 1946
11 (موت العم باخير	الاسبوع 21 جانفى 1946
12 (سهرت منه الليال	الاسبوع 11 مارس 1946
13 (سر القرطبة السابعة	الاسبوع 26 ماي 1946
14 (نزهة راقصة	المباحث جوان - جويلية 1946
15 (ام حواء	الفكر جويلية 1959

5 تصدير
9 - على الندوعاجي الكاتب البائر : تقديم عز الدين المدني
19 كنز الفقراء
24 جارتى
31 فى شاطئ حمام الانفت
35 المصباح المظلم
43 راعى النجوم
55 احلام حدى
60 الركن النير
68 امن تذكر جيران بذى سلم
73 مجرم رغم أنفه
79 قتلت غالية !...
84 موت العم « باخير »
89 سهرت منه الليالى
94 الغرفة السابعة
101 نزعة رافقة
121 ام حواء
123 مقدمة أم حواء
125 نهاية أعزب
134 مصادر القصص